العلم الثقافي

المدير: عبد الله البقالي

سنة: 56

سنة التأسيس: 1969/2/7

الخميس 12 من رمضان 1446

الموافق 13 من مارس 2025

10 ، شارع زنقة المرج حسان الرباط

Bach1969med@gmail.com

كاريكاتير: مبارك بوعلي

المُقاطعة أو المجاعة !

إذا أردت أن تـزداد قلقا، فكُن متسوّقاً في رمضان، يا أ االله.. ليس ثمة أفظع وأمرَّ من أن تتوفّر على القدرة في الشراء، وغيرك يُخفي عجزه بابتسامة كاذبة مُكتفيا بالنظر، ألا يعلمون أنه حين يضيقُ الجيْبُ عاجزا عن تلْبية أبْسَط حاجيات المواطن المعيشيَّة، تضَيقُ معه كل السُّبل ويتراءى الأفُق بأعين الأزمة الخانقة سجناً، الأجدر يا بني إنسان، أن نصومَ جميعا عن كل ما ليس في مُتناول القدرة الشرائية للضعفاء، في كل الأيام وليس فقط في رمضان !

قيلَ الكثير حول إضراب المواطن المغربي عن بعض الأطعمة، وكان قد بدأها بالسَائلة كحليب (سنطرال) والماء المعدني (سيدي علي)، أما البنزين النابع تحديدا من (محطة أفريقيا) ومنابع أخرى كـ (طوطال) و(شال)، فطعامُ للسيارات وليس للمسكين، والدَّوْر على الزيت الذي اغْتَرَّ بلونه الأشقر وصار يُباع في البلد بثمن الذهب، مع التهديد بالانتقال بالمُقاطعة حتى المجاعة إلى صُلب الموضوع، وذلك بالكفّ عن شراء بعض الأنواع الغذائية الصَّلبة خبزا ولحوماً برية وبحرية وجوية، منها الدجاج الذي جعلته الأسعار العالية يحلّق و يطير!

أجَلْ قيلَ الكثير عن هذا الإختيار العسير بين المقاطعة أو المجاعة، وانقسمتْ البلاد إلى فئتين، مع فرق أن إحداها عريضة تُشكل غالبية الشعب بكل أطيافه الاجتماعية المسحوقة، والفئة الأخرى قلةٌ تحْتكر الموارد الحيوية لهذا الشعب دون توزيع عادل للثروات، لكن في كلِّ ما قيل عشنا حتى سمعنا الشعب متّهماً بالتَّخوين مَمن يعتبرون أنفسهم وطنيين يا سلام، لا لشيء إلا لأنهم يمتلكون مركزا استعماريا يستغل عرق الفلاحين وخيرات البلد، وإذا أردْنا تحرِّي الصِّدق فجُلّ ما نستهلكه اليوم من أغذية في مختلف أصنافها الصلبة أو السائلة، فَقَدْ بالغشّ جودتهُ فلا طعم ولا لون، وجعله وازعُ الجشع يُصَنَّع بأقل تكلفة ليضاعف أربابُ الشركات الأرباح لاهثين وراء الإثراء السريع، صاروا لا يبيعون اليوم من المنتوج إلا الإسم، ذاك الذي كان ربما عنوانا لجودة البضاعة لعقود قد يصل قرنا، فعُلبة الحليب مثلا كانت تترك لنا في جوفها بعد أن نفرغها في جوفنا هدية صغيرة من الزُّبدة لا تجعل خبزنا حافياً، أما اليوم في زمن الندامة، فلم يبْقَ من هذا الحليب بعد أن صار ماء سوى العلامة !

لقد قيل الكثير ولكن أفظع ما قيل صَدرَ عن بعض المأجورين في أقلامهم التي لفرْط نعومة أظافرها لا تهش ولا تنش، و بدَل أن يصطفُّوا تضامنا مع شعب منكوب، مضوا كاتبين ما يُلمِّع زُورا صورة أصحاب هذه الشركات دونَ أن يجد لهُم المواطن عُذراً في كل ما كتبوه باللعب على أكثر من حبل سياسي، فنحن لا تهمُّنا السياسة الدائرة برحاها بين أطراف مُتطاحنة من أجل الاستئثار بالسلطة ومعه المال، إن ما يهمُّنا هو حماية أمْننا الغذائي بعد أن صار بالغلاء الفاحش مهدَّدا، فَعَنْ أيِّ مغرب أخْضر يتحدثون وقد ازْرَقّتْ أعينُ المواطنين باللكمة النَّفّاثة للأسعَار، بل إنَّهم في كل ما كتبوهُ أو كذَبُوهُ لصالح أولياء نعمتهم غير الصالحين، لم يزدْ الناس إلا إمعاناً في مُقاطعة ما يُزعْزع استقرار الجيب موردَ عيشهم الوحيد، كيف لا وبعض الامبراطوريات المالية التي أنشئت على قارورة وعلبة كارطون، يَنْصَبُّ كل همِّها على ضرْب القدرة الشرائية للمواطن، كان حريّا بأرباحها التي صار باديا للعرْيان، أنَّ أرقامها المُهْولة تُقدَّرُ بميزانيات الدُّول، أن تُساهم إنعاشَ الحياة الاقتصادية لأبناء الشعب وحل بعض مشاكلهم في التعليم والبطالة والصحة وغيرها من المرافق الاجتماعية التي تفتح هُوَّتَها خَصاصاً، فمن أين لهذه الشّركات الجشعة الوطنيَّةُ، وهي لا تَعترف إلا بالوطن الذي في جيوبها الأمامية والخلفية، فما أفظع أن يفْقد المُواطن أمْنه الغذائي، يدلف حيّا لأسواق تفيض بخيرات البلد، ويخرج ميِّتاً بقفّة فارغة، وفي غالب الحزن وليس فقط الظن، ينهار بالقول عوض العودة إلى البيت: يا ليتني حبل في وتد !

محمد بشكار

نور الدين محقق يلتقي وليام شكسبير

عاشق غرناطة العربي

في ترجمة إنجليزية

عن دار «بصمة للنشر والتوزيع» بالمملكة المغربية، صدرت حديثا (2025)، الترجمة الإنجليزية لديوان «عاشق غرناطة العربي» للشاعر والروائي المغربي الدكتور نور الدين محقق، وهي من إنجاز الشاعر والأستاذ الجامعي المغربي الدكتور مراد الخطيبي. والجدير بالذكر أن هذا الديوان الشعري هو عبارة عن كتاب شعري خصص بالكامل للحديث عن مدينة غرناطة بمنظور شعري حداثي يجمع بين التدفق الشعري العميق والرؤية التأملية التاريخية في سيرورة المكان وتحولاته وأثر ذلك على علاقة الإنسان ممثلا هنا بالشاعر نفسه بكل ذلك.

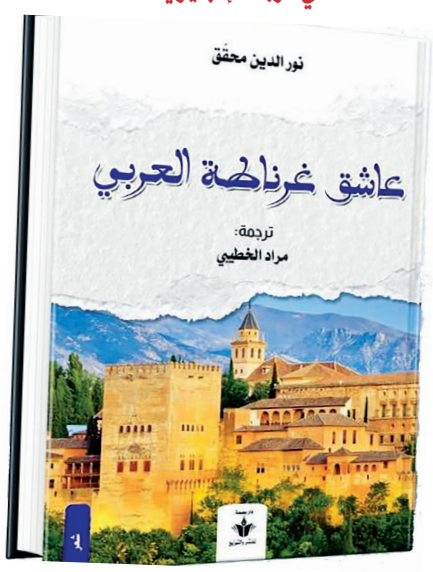

لقد صدر هذا الديوان الشعري في حلة أنيقة وقد قام بتصميم غلافه الفنان المغربي توفيق لبيض. وهو يحتوي على قسمين، قسم يضم النصوص الشعرية الأصلية التي كتبت باللغة العربية والقسم الثاني يضم الترجمة الإنجليزية لهذه النصوص الشعرية.

بالإضافة إلى ذلك، فهذا الديوان الشعري يتميز بغنائية شعرية قوية تسري في ثنايا قصائده، كما يتميز بحضور الجانب السردي فيه بشكل فني محكم الصنع، بحيث تتنامى فيه الحكايات بطريقة شعرية موغلة في الشفافية وفي الجمال الرمزي التأملي.

تجدر الإشارة إلى أن الشاعر والروائي المغربي له العديد من الدواوين الشعرية التي احتفى فيها بالذات الشاعرة في علاقتها سواء بالزمان أو بالمكان في رؤية حضارية ذات أفق إنساني كوني ، نذكر منها ديوان «أغاني الفتى الباريسي» و» العابر في الليل إلى مدن النهار» ، و»دفاتر طنجة العالية» و»إشراقات مراكش الحمراء» وغيرها .

جمال بندحمان

السيميائيات وآليات تشييد المعنى

كتاب جديد للناقد الاكاديمي المغربي جمال بندحمان، أصدره أخيرا عن دار رؤية للنشر والتوزيع /مصر2025-، ليستكمل به مشروعه النقدي في الدرس والمقاربة السميائية للخطاب الأدبي، وهو تحت عنوان: «السيميائيات وآليات تشييد المعنى» وقد جاء في ظهر غلاف الكتاب:

« دأب الدارسون على الحديث عن المعنى باعتباره معطى يفهم من محتوى هذا الخطاب أو ذاك، وأن المتلقين يفهمون ما يسمع، أو ما يقرأ، أو يشاهد. لكن يتم تغييب أسئلة معينة من قبيل: كيف يفهم المحتوى؟ لماذا يختلف فهم المتلقين للخطابات والنصوص؟ ما الآليات التي تعتمد في تحديد المعنى؟ هل المعاني كلية أم محكومة بشروط ثقافية ومرجعية معينة؟ هل المعنى معطى جاهز ومتضمن في الخطاب أم إن المتلقي هو من يعمل على تشييده وبنائه؟ .علما أن هذه الأسئلة، وما يشاكلها، تحتاج إلى تقليب النظر والبحث في الآليات الموظفة للوصول إلى أجوبة مقنعة .

تقدم السيميائيات إجابات إجرائية تؤكد من خلالها أن المعنى يشيد اعتمادا على استثمار علاقتنا بالأشياء والعلامات، وبالحواس وبتجربتنا الثقافية، وبخلفيتنا المعرفية على نحو ما تؤكده إشارات اليد، مثلا،من سلام أو تهديد أو مصافحة أو تحديد زمني...؛أي إن علاقتنا بالعالم مؤسسة على تشييد المعنى، وليس على المعطيات المعلنة والظاهرة فقط من هنا نسبية المعاني، واختلافها باختلاف الثقافات.

يدرس هذا الكتاب قضايا المعنى، ويجيب عن سؤال التشييد وأسسه ومبادئه، ويرفض مبدأ المعنى المعطى بخلفياته ونظرياته، ويجمع بين مسارين: مسار نظري قدم المفاهيم والآليات الإجرائية المعتمدة لدى أصحاب السيميائيات التشييدية من قبيل أسس الفهم ومقومات التمثل ،والعوالم الممكنة، ومبادئ التأويل وإجراءاته، ومسار تطبيقي درس مظاهر هذه السيميائيات في كتابات الدكتور محمد مفتاح، وفي ترجمات الدكتور محمد البكري، ولاختبار كفاية مبادئ هذه السيميائيات تم تطبيق مفاهيمها النظرية على خطابات روائية وشعرية، وعلى سردية الجوائح، وخطاب الجنون . ويعتبر جمال بندحمان، الأستاذ والباحث الجامعي، واحدا من الباحثين والفاعلين في المجال الثقافي والجمعوي المدني ، فقد أصدر كتبا نقدية ورواية: الأنساق الذهنية في الخطاب الشعري – سيمياء الحي المركب- محنة ابن اللسان(رواية)؛ بالإضافة إلى عدد من المقالات والدراسات والأبحاث والخبرات في مجالات النقد والتربية والمجتمع . مثلما هو أيضا كاتب عام لمنتدى المواطنة وخبير في المجال المدني: عضو لجنة خبراء الحوار الوطني حول المجتمع المدني بالمغرب، وعضو لجنة الخبراء الأكاديميين التي أشرفت على صياغة الأرضية المواطنة(المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان).مسؤول الدراسات والأبحاث بمنتدى المواطنة،ومسؤول التكوين والتدريب بالمؤسسة الدولية للتدريب والتنمية. أشرف على العديد من الدورات التدريبية بالمغرب وخارجه في مواضيع مثل (الحقوق اللغوية والثقافية،آليات مناهضة التطرف، التنوع الهوياتي وأسس التعايش- التدبير التشاركي، قيم المواطنة، الحق في المعلومة...)، صدرت له عدة كتابات أكاديمية ومدنية من بينها في المجال التدريبي :التربية على المواطنة. التربية على التسامح (دليل المفاهيم)، و (دليل المكون) ، المواطنة المسؤولة ، التدبير التشاركي،الحكامة(الحوكمة) التربوية، المدرسة والتعبئة المجتمعية؛الإعلام والحق في المعلومة... وفي مجال الرصد صدر له :المشاركة المدنية في تدبير الازمات :دراسة وثائقية تفاعلية حول مشاركة جمعيات المجتمع المدني في تدبير جائحة كورونا ،ودراسات لرصد قضايا الانتقال الديمقراطي بالمغرب ، التنمية والحقوق اللغوية والثقافية.وقضايا الهوية من منظور حقوقي».

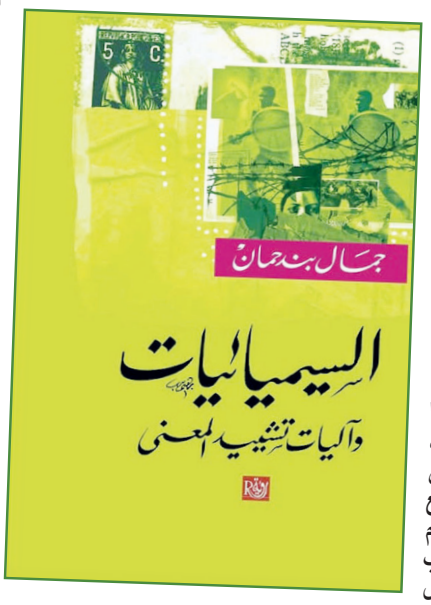

سعيد العيماري

الفضاء الروائي في الخطاب النقدي

المفهوم والمرجعيات والمقاربات

كتاب نقدي جديد صدر حديثا عن منشورات السرديات بالدار البيضاء، وهو للباحث سعيد العيماري بعنوان: «الفضاء الروائي في الخطاب النقدي – المفهوم والمرجعيات والمقاربات».

يقع الكتاب في 254 صفحة من الحجم المتوسط؛ قدم الباحث فيه دراسة لموضوع الفضاء الروائي من زاوية نقدية تروم تبئير البحث حول حدود استعمال المفهوم انطلاقا من تتبع سيرورة تشكله في الدرسين النقدي والغربي، وتبرز المرجعيات التي استند إليها لاعتماده داخل حقول معرفية مختلفة تتضح من خلالها المصطلحات المحايثة المرتبطة به، قبل أن يتوسع الكتاب في عرض المقاربات التي وظفت المفهوم وأوجدت آليات تحليلية تسعف في دراسته بما ينسجم مع أشكال تمظهره المكانية والزمنية والذهنية.

امتد الكتاب إلى ثلاثة فصول حاولت الإجابة عن أسئلة الآتية: ما الدلالات المعجمية والاصطلاحية للفضاء؟ وما مرجعيات تحديداتها المفهومية؟ وإلى أي حد يمكن اعتبار الفضاء مفهوما جامعا لعناصر الخطاب الروائي؟ ما حدود التعالق بينه وبين باقي العناصر التي يبنى عليها الخطاب الروائي؟ كيف تناولت المقاربتان الشعرية والسيميائية المفهوم؟ ما الآليات التحليلية التي أوجدتها كل مقاربة في دراسة هذا الخطاب؟ وما الإضافات التي أسهمتا في تقديمها للنقد الأدبي من حيث استثمار المفهوم وأدواته التحليلية في دراسة الأعمال الروائية؟

اختص الفصل الأول بتتبع مفهوم الفضاء في الخطاب الروائي والمسار الذي عرفه تشكل المصطلح، انطلاقا من تبيان العلاقة بين مفهومي الفضاء والمكان، وإبراز السياقات المختلفة التي استعمل فيها مصطلح الفضاء في العلوم الحقة والفلسفة، والاتساع الذي أضحى يوظف به في دراسة الخطاب الروائي، ومن ثمة اعتباره مفهوما جامعا يتخذ أشكال تمظهر تتحدد في الفضاء المكاني والفضاء الزمني والفضاء الذهني.

بينما رصد الفصل الثاني مميزات المقاربة الشعرية للفضاء الروائي، من خلال إبراز الإسهامات التي تحققت معها في الدراسة السردية للفضاء في النقدين الغربي والعربي، مع تحديد الآليات التحليلية التي استندت إليها هذه المقاربة لتمثل مرتكزا للبحث في أشكال تمظهر الفضاء ووظائفها السردية اعتمادا على مفاهيم من قبيل: الفضائية، الدال الفضائي، التنظيم الفضائي.

أما الفصل الثالث، فكشف خصوصيات المقاربة السيميائية للفضاء الروائي، وذلك عبر عرض إرهاصات التحليل السيميائي التي انكبت على دراسة هذا المكون؛ وتبيان الدور الذي اضطلع به اعتبار الفضاء مقولة لغوية تجعله بمثابة علامة دالة قابلة للتأويل، يمكن من خلالها تحديد المسار التوليدي للدلالة في الخطاب الروائي، كما أبرز الباحث في هذا الفصل سمة البناء الفني التي يتأسس عليها، وكذا علاقتها بمفاهيم إجرائية تُعتمَد في التحليل السيميائي للفضاء؛ من مثل: التقاطب والنسق الفضائي والنمذجة الفضائية والحد الفضائي.

حفريات في ذاكرة إذاعة وجدة الجهوية منذ التأسيس

يكشفها كتاب «FM 104» لشفيقة العبدلاوي

إلهام الصنابي

صدر حديثا الكتاب الثاني للإعلامية شفيقة العبدلاوي عن مكتبة شهيدة بمدينة وجدة 2025، وقد وسمته ب «FM104»

ويقع في 260 صفحة من الحجم المتوسط، خصصته الباحثة للغوص في تخوم ذاكرة إذاعة وجدة الجهوية منذ التأسيس عام 1962، حيث يندرج هذا العمل القيم ضمن علم التوثيق والأرشفة باعتبارهما من بين أهم التقنيات العلمية المساهمة في الحفاظ على التاريخ والهوية والذاكرة في مستوياتها المختلفة، حيث تشكل الوثيقة أداة مهمة لتخزين المعلومات حول حقبة زمنية معينة تحفظ خصوصياتها وأحداثها، وقد مهدت الباحثة لعملها هذا بمقدمة بسطت فيها أهمية علم التوثيق في العمل الإذاعي، تقول: «وقد سارعت المؤسسات الإعلامية الإذاعية والتلفزيونية والصحفية، إلى التوثيق الإعلامي، الذي يسعى بطريقة مكثفة إلى تجميع المادة الإعلامية المعتمدة، من تسجيلات صوتية ومرئية ومكتوبة، على أن يتم تحديدها بطريقة تساعد على إعادة إنتاجها بطريقة معتمدة، وذلك من أجل تحديد مجالات الاستفادة منها، وتحديد البيئة الإعلامية الميدانية، المحيطة بمجموعة من المعارف، ذات المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ومن أجل التعامل معها بطريقة موضحة لكافة الأهداف الإعلامية».

وقد وقفت الباحثة في عملها عند جهود السابقين في مجال التوثيق والحفاظ على الذاكرة الإذاعية الوطنية عبر مراحلها المتعددة وصولا إلى التوثيق الرقمي، والمقصدية من عملها الرامي إلى الحفاظ على الذاكرة الإذاعية لمحطة إذاعة وجدة الجهوية، «وسيرا على هذه السنة الحميدة لصون ذاكرة الإذاعة، جاء هذا العمل الذي هو ثمرة جهد لسنوات عديدة، وبذلك يكون أول عمل يوثق لمحطة إذاعة وجدة»، كما أشارت الباحثة الى المنهجية العلمية التي اعتمدتها في تأليف هذا الكتاب والتي تدرجت عبر مستويات منهجية كانت بداية بتسجيل المادة الصوتية، ثم تفريغها، فتصنيفها، كما تم الاعتماد على المصدر الحضوري، ولعل ما يميز هذا المؤلف هو تعزيزه بصور جميع الأسماء الواردة فيه، إضافة إلى الوثائق والمذكرات والمراسلات التي كانت تتم بين عناصر المنظومة الإعلامية، سواء على المستوى الجهوي أم المركزي، كما وعدت بالعودة إليها في مرحلة لاحقة قصد استقرائها ودراسة مضامينها، وقد سطرت الباحثة منهجية كرونولوجية لترتيب مواد الكتاب، واستحضرت عددا مهما من الأسماء التي تعاقبت على إذاعة وجدة الجهوية من مديرين وتقنيين وصحافيين ومنتجين وغيرهم، وهم على التوالي: محمد الماجدولي والعابد السودي القرشي وعمر بلشهب وعبد الرحمان مجد، وعزيز ريباك واسمهان عمور وإبراهيم خالد ومباركة مشيور، ومصطفى سليماني والميلود بوطيب، ثم قاسم اجداين ويحيى الكوراري وبوجمعة بلحاج، وحورية رحاوي عبد الحميد لحسيني، محمد عياد الريفي، ومحمد بنعمارة وبلعيد أبو يوسف، وسعيد التباع ومصطفى الحجازي ومحمد حماد الزروقي، وعبد القادر وساط وعلي خروبي.

وقبل ذلك قدمت توطئة تأريخية لكل من يحي بلخو ويحيى عباسي، حيث استحضرا البدايات الأولى لاستقبال المستمعين لأمواج إذاعة وجدة الجهوية.

وقد وقفت الباحثة طويلا لتحديد عتبة العنوان، مبينة معنى FM «هي اختصار لكلمة إنجليزية frequency modulation ، وهو إجراء لبث البرامج الإذاعية، بتعديل التردد في نطاق الترددات العالية جدا vhf - very high frequency- أما (104) فهي إشارة للتردد 104 ميغاهيرتز؛ والتي تدخل في نطاق الذبذبات الخاصة ب (FM) الموجودة بين 87.5 و 108 ميغاهيرتز (megahertz) . والإشارة (104)، هي أول تردد، يُرخص به لإذاعة وجدة الجهوية، من طرف الوكالة الوطنية لتقنين الاتصالات، تلتها بعد ذلك ترددات أخرى، لتغطية باقي مناطق الجهة الشرقية.»

تجدر الإشارة إلى أن شفيقة العبدلاوي حاصلة على الدكتوراه في الإعلام من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة في موضوع «اللغة العربية في الخطاب الإعلامي السمعي المغربي – إذاعة وجدة أنموذجا» عام 2020، وصدر لها كتابها الأول في موضوع «الإذاعة والتنمية اللغوية أي علاقة بين الخطاب الإعلامي واللغة العربية؟» عن مطبعة جسور في طبعته الأولى لعام 2021، ضمن منشورات العلامة الجمالية بوجدة.

في أفق الحلم بعالم مترابط

قراءة في كتاب «التربية المدنية العالمية: مسؤوليات وحقوق في عالم مترابط»1

تحرير هاكان ألتناي*، ترجمة عبد النور خراقي***

د. فؤاد عفاني**

1- مقدمة

يأخذ مفهوم التربية المدنية حيزا مهما من اهتمامات المفكرين والباحثين على اختلاف مشاربهم لِم له من أثر بالغ في تغيير السلوك البشري، وترشيد الوعَي بالحقوق والواجبات. إن التربية المدنية تتجاوز الأسوار المدرسية لتستوعب الحياة في شتى مناحيها أملا في بناء شخصية المواطن الذي يؤمن بالمبادرة والمشاركة والفعالية. ونظرا لإدراك الإنسان المعاصر للترابط الشديد الذي أضحى عليه عالمنا، فقد تنامت دعوات إلى المطالبة بتربية مدنية عالمية، الغاية من ورائها توجيه رسائلها للمجتمع المدني وبث روح المسؤولية التي ينبغي أن يتحلى بها الجميع لحماية هذا الكوكب على كافة المستويات وبعيدا عن الحسابات الجغرافية والسياسية الضيقة.

إن هذا الكتاب «ثمرة نقاشات عديدة، جرت خلال العامين 2009 و2010. وقد قدم الإطار الأساسي لتربية مدنية عالمية لأول مرة في ندوة بروكينغز في شهر يناير 2009، وتطورت خلال برنامج ييل للزمالة العالمية yale world fellowship لعام 2009»2. كما يتميز هذا الكتاب بكونه يمثل تضافر جهود عدد من المتخصصين في الشأن الفكري والسياسي العالمي؛ إذ كتب ألتناي جزءا من هذا الكتاب، وتولى جمع الجزء الباقي من خلال مساهمة عدد من الباحثين الذين يجمعون على «استحالة تحقيق تقدم سريع نحو تعاون علمي ضروري في القرن الواحد العشرين من دون تطوير بعض أشكال «الحس المدني العالمي»»3. ويتضح التصور العام لهذا الكتاب الذي يمتد على مائة وثمانين صفحة، منذ المقطع الافتتاحي الذي يسبق متن الكتاب، إذ أدرج المؤلف رأيا لكوفي عنان الامين العام الأسبق للأمم المتحدة يقول فيه: «إن الترابط المتزايد بين الناس عبر العالم يعزز الوعي بأننا جزء لا يتجزأ من مجتمع عالمي. ويمكن توجيه هذا الحس من الترابط، والالتزام بالقيم المشتركة العامة، والتضامن بين الشعوب عبر العالم، لبناء حوكمة عالمية ديموقراطية متنورة تخدم مصالح الجميع»4. إن كتاب «التربية المدنية» جاء ليعزز قيمة الترابط البشري والتحسيس بوحدة المصير المشترك الذي أصبح واقعا تزداد أهميته بازدياد التقارب الإنساني الذي يسّرته الأنظمة الحديثة للتواصل والاتصال. وترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية من شأنه أن ينير سبيل الباحثين في الموضوع خصوصا في ظل التأليف القليل في هذا المجال على المستوى العربي.

على المستوى المنهجي جاء الكتاب موزعا على ثمانية فصول؛ فصل أول من تأليف هاكان ألتناي/ Àli Hakan Altnay، وهو ثمرة مقالين تم إنجازهما في معهد بروكينغ، هما :»«التربية المدنية العالمية» و«هل النزاهة أمر مهم؟»، بالإضافة إلى ردود أفعال القراء التي استلمناها من مختلف بقاع العالم بشأن الأفكار التي يطرحها هذا المقالان»5. أما الفصول الأربعة الموالية فأدْرجت ضمن قسم أول تناول «وجهات نظر عالمية، تم عَرضها في شكل مقابلات أجراها المؤلف خلال الفترة الممتدة بين يونيو ونوفمبر 2010»6، مع عدد من زملائه من مختلف أنحاء العالم، مما جعلها تعبر عن خلفيات أكاديمية وجغرافية مختلفة تتيح للمهتمين تقييم مدى شرعية وجدوى موضوع التربية المدنية العالمية.

أما الجزء الثاني من الكتاب والذي يشمل الفصول المتبقية، فيهدف إلى إعداد منهاج دراسي رسمي ينزّل فكرة التربية المدنية العالمية.

مهّد المترجم عبد النور خراقي للكتاب بمقدمة يستعرض من خلالها دواعي اختيار نقل هذا الكتاب للغة العربية، فأشار إلى أن العالم قد عرف تحولا كبيرا على مستوى العلاقات الإنسانية، وكان لذلك أثر بالغ على المحيط المشترك الذي نعيش فيه، ناهيك عن انتشار أسلحة الدمار الشامل وظاهرة الاحتباس الحراري وغير ذلك من التجليات التي تكشف عن الوضع المزري لواقعنا ومستقبلنا. ولهذا فإن الأستاذ عبد النور خراقي يرى أن التربية المدنية العالمية تنشد «فهم العلاقات العنكبوتية المترابطة التي تجمع مواطني العالم في ظل عقد اجتماعي، كما تقوم على ضمان حقوق نتمتع بها ومسؤوليات نقوم بها لأننا ببساطة مواطنون عالميون»7، يقطنون وطنا واحدا هو كوكب الأرض الذي لا يؤمن بالقيم الضيقة التي تقوم عليها الدول ذات الحدود الجغرافية والسياسية والتي بموجبها تتم مراعاة مصالح فئات وإثنيات خاصة.

ويستهل كمال درفيش المقدمة التي وضعها للكتاب بتوصيف بلاغي يشبه من خلاله العالم بكرة خيط، صورة تؤكد أن العالم متماسك بشكل بنيوي يتعذر من خلاله أن نفصل الأجزاء عن بعضها البعض، إذ تشكل الأجزاءُ الكل، كما يكتمل وجود الكل انطلاقا من الأجزاء. ف»بطبيعة الحال، لا يمكن التعامل مع كل شيء بوصفه عالميا؛ بل على المرء استحضار، أيضا، قوة المحلي الحقيقي وأهميته. غير أن العديد من التحديات الرئيسة هي في واقع الأمر عالمية، ولا يمكن مواجهتها إلا عبر تعاون قوي بين الدول والأقاليم»8. إن تكاتف الجهود يؤدي إلى تحقيق المنفعة العامة التي يستفيد منها الجميع بشكل ديموقراطي يضمن المساواة في الحقوق والواجبات، ومن أوجه هذه المنفعة الهواء النظيف والأمن القومي والاستقرار المالي العالمي والسير الجيد لنظام التجارة العالمية.

أولا: التربية المدنية العالمية وسؤال المشروعية

تثير الدعوة إلى العالمية توجسا لدى الكثير من الباحثين الذين يدافعون عن الخصوصية ويرون أن القيم التي يتبناها أي مجتمع مرتبطة بهيمنته الاقتصادية والسياسية والعلمية، «فيصبح التنافس في التنافس في الدفاع عن القيم، أو ممارسة الضغط من أجل نشرها، تعبيرا عن مصالح المجتمعات أو الفئات المتنافسة فيه، أكثر منه تعبيرا عن المضمون الأخلاقي الثاوي في تلك القيم»9. إن هاكان ألتناي يناقش مفهوما جديدا يراه بعيدا عن أي تحيز وبإمكانه تجاوز الانتقادات التي جرتها التصورات ذات الطابع الشمولي.

ويعبر هاكان في الفصل الأول من الكتاب عن دراية عميقة بواقع النظام العالمي الجديد، إذ يضع يده منذ البداية على مكمن الداء والمتمثل في فشل الدول القومية في تقديم حلول واقعية للأزمات والمشاكل الشاملة، وذلك لأن الإكراهات السياسية والسيادية تجعل هذه الدول مكتوفة الأيدي أمام كل ما يتخطى الحدود. وفي هذا السياق يستعرض هاكان نموذجين عامين يتم اللجوء إليهما لتخطي تلك الصعوبات؛ «يقوم الأول على سلسلة واسعة من تحالفات وحلول مبدعة لغرض محدد... أما النموذج الثاني، فهو يقوم على ثقة أكثر انتظاما على سيادة القانون العالمي، وأيضا على ما أصبح يعرف بنموذج المنافع العامة العالمية»10، ويؤمن هذان النموذجان معا «بأن الحوكمة العالمية أساس لغز تكنوقراطي سيقدم التصميم المؤسساتي البارع الأجوبة الضرورية لفكه، غير أن العالم في واقع الأمر يتفاوض بشأن عقد اجتماعي علمي، وليس بشأن حل تكنوقراطي.»11

إن التربية المدنية العالمية - حسب هاكان- هي النموذج القادر على تحقيق ذلك العقد الاجتماعي العالمي وما يرتبط به من حقوق ومسؤوليات تكفل المواطنة الحقة في كافة مستوياتها. إلا أن التبشير بهذا النموذج استدعى من الباحث تبديد المخاوف الخفية التي تحيط به، خصوصا وأن النقاش حول هذا الموضوع مازال لم يرتق للمستوى المأمول.

ويمثل هاجس قيام دولة فيدرالية عالمية على نحو خفي أحد أكبر مظاهر التخوف التي ترافق الدعوة إلى تربية مدنية عالمية، فينجم عن ذلك نتيجة سلبية أساسية «تتمثل في إثارة الشبهات حول البنيات الدولية، وفي بث شعور الخوف في نفوس أناس معقولين قد يكونون في المقابل متفتحين على تعاون عملي دولي»12. أما دعاة النظرية الكونية الراديكالية cosmopolitanism فهم منشأ التخوف الثاني؛ «ويرى هؤلاء الكونيون الراديكاليون ضرورة الاستعداد إلى دفع كل ما نملك ثمنا لأن يصير إنسان آخر في العالم أيسر حالا منا جميعا. ويصف النقاد، بيقين، مؤيدي هذه الآراء بكونهم يهتمون بإنسانية افتراضية، بينما يحملون قدرا كبيرا من الازدراء حيال أخطاء البشر ونقائصهم»13. وتكمن خطورة أصحاب هذا التوجه، كما هو الحال بالنسبة للمجموعة الأولى، أنهم يبثون الخوف في نفوس «الناس العقلاء الذين سيتصدون بعدئذ إلى أي حديث عن إطارات عالمية معيارية»14. أما أصحاب التخوف الثالث فيتزعمه دعاة يوم الحساب الذين يؤمنون بسوداوية المستقبل، وهم في ذلك لا يختلفون كثيرا عن أصحاب التخوف الرابع الذي يقوده الواقعيون المتشائمون الواثقون من غياب العدالة في هذه الحياة «وعلى المرء أن يهتم بالنمو ولا يطارد إطارات عالمية غير علمية.»15

إن تلك التخوفات دفعت الباحثين إلى ضرورة فتح نقاش جدي لإزالة كل لبس يمكن أن يتعلق بمدى فاعلية التربية المدنية العالمية، فالترابط العالمي حقيقة لا مفر منها، وأي هروب إلى الخوف أو الانعزالية سيزيد الوضع الراهن تفاقما. ف»في عالم مترابط بشكل متزايد، يحتاج الناس إلى إطار شامل منسجم كي يضعوا حدا لقلقهم نسبيا. ولابد لجزء من هذا الإطار المرجعي أن يقوم على التربية المدنية العالمية التي تشير إلى نظام الوعي بالمسؤوليات التي نحن على أتم الاستعداد لتحملها بعدد الحصول على حقوق مماثلة نطالب بها»16. وحتى نتمكن من وضع تصور للتربية المدنية العالمية يجعلنا هاكان أمام صورة مفترضة من خلال وضعنا في مواجهة الإنسان المتمم لسبعة مليارات نسمة الذي سيحل ضيفا على كوكب الأرض، فمن الأكيد أننا سنجد أنفسنا محرجين لتبرر لهذا الضيف واقع الإبادات الجماعية والكوارث البيئية وتكديس آلاف الرؤوس النووية. «إن القيام بأشياء إيجابية متبادلة تسرّ غيرنا يبقى المقياس الأكثر مرونة لتقييم السلوك المهذب في تاريخ البشرية. يمكن لهذه المناقشة الافتراضية مع ضيفنا الجديد أن ييسر لنا الطريق كي نجيب عن بعض الأسئلة، وتساعدنا على شرح ما تستلزمه التربية المدنية العالمية.»17

إن التأسيس لتربية مدنية حقيقة ?حسب تصور ألتناي- يقتضي مشاركة حقيقة وإعادة النظر في مفهوم السلطة، إذ لابد من تعاون الفاعلين الأساسيين والمواطنين العاديين للمضي قدما نحو الاختيارات المستقبلية. «إن هندسة السلطة في العالم ليست هي القوة الموجهة الوحيدة التي أصبحت أكثر ديموقراطية، بل الانتشار السريع لمحطات البث العابرة للحدود، مكنتنا من الإحاطة بحزن وسعادة بعضنا بعضا. صحيح لسنا قرية صغيرة بعد، لكننا اكثر إدراكا بمآزق بعضنا بعضا مما كان الحال عليه في قرن مضى أو بالأحرى عقد مضى»18، كل ذلك أعطى للمجتمع المدني والرأي العام أهمية كبرى في توجيه السياسات العامة.

ثانيا: وجهات نظر للارتقاء بالتربية المدنية العالمية

ليوسع هاكان ألتناي النقاش حول موضوع التربية المدنية العالمية، خصص الفصل الثاني من كتابه لاستعراض عشر وجهات نظر19 حول التربية المدنية العالمية، فقام بـ»محاورة عشر علماء وزعماء محترمين على الصعيد الدولي _ كل على حدة_ في محاولة للتحقق من طبيعة التحديات العالمية التي يواجهها العالم حاليا، ودور التربية المدنية العالمية في مساعدة البشرية على معالجة هذه التحديات. ويمثل المستجوبون جنسيات وتخصصات مختلفة، وبهذا سيجلبون تنوعا وثراء في وجهات النظر لهذا التبادل في الأفكار.»20 وتدور النقاشات التي تضمنها هذا الفصل حول عدد من القضايا المترابطة كمدى جدوى التربية المدنية، ودور المجتمع المدني والجامعات في تحقيقها، والمناهج التربوية الكفيلة بترسيخ هذه التربية...

وفي سياق الانفتاح على وجهات نظر مختلفة، جاء الفصل الثالث من الكتاب بقلم نبيل فهمي الذي حاول صياغة مفهوم جديد للأمن الغذائي والتربية المدنية العالمية، وذلك من خلال التأكيد على أن «التحدي الذي يواجه التربية المدنية العالمية هو اختيار معيار من المعايير، وفي الوقت نفسه العمل على تطوير رسالة الميثاق وروحها، ومن المعايير الدولية المعاصرة التي سبق لنا تأسيسها. وللأسف الشديد، فإن التاريخ الدولي المعاصر، يعج بأدلة تفيد بوجود دول انتقائية تؤكد تلك المفاهيم، والمعايير والتفاسير والآليات القانونية الدولية التي تخدم مصالحها، في حين تغض الطرف عن تلك التي تبرز مسؤولياتها أو مصالح غيرها»21. وقد تم تشكيل تلك المعايير والمفاهيم عقب الحربين العالميتين وما خلفتاه من دمار، الأمر الذي استدعى ضرورة إقرار سلم عالمي قائم على «توازن القوى». ورغم الملاحظات التي يبديها نبيل فهمي على طبيعة النظام العالمي القائم، إلا أنه لا يقترح تجاهل ذلك النظام ومؤسساته، كما لا يدعو تعديل ميثاق الأمم المتحدة جذريا، بل اقترح «تبني مفهوم مختلف للأمن يقوم على «توازن المصالح» عوض «توازن القوة»، يتناسب أكثر مع عالم مكون من أصحاب مصلحة كثر، بما في ذلك أحزاب الدولة وأحزاب غير تابعة للدولة.»22

إن نبيل فهمي يرى أن المفهوم الشامل لتوازن المصالح، يتجاوز التعريف التقليدي للأمن الذي يتركز بالخصوص على تقوية الترسانة العسكرية وحماية الحدود السيادية «وإنما أيضا يجسد مجموعة أكثر شمولية من الثوابت التي لها مضامين أمنية ومدنية قادرة على تفسير المصالح الاقتصادية والاجتماعية ? ليس فقط داخل الدول أو بينها، لكن أيضا بين الشعب عبر الحدود الوطنية»23. ويركز نبيل فهمي في دراسته على أهمية القاعدة الشعبية في صياغة النموذج الجديد، دون إغفال أهمية الوسط الأكاديمي الذي يشكل التربة الخصبة لنمو الأفكار والتصورات الرائدة والتغييرية. لكن لا بد من التأكيد على أن «دعم تربية مدنية عالمية ومذهب توازن المصالح، يوجد عبر مجموعة مختلفة من الدول. ومع ذلك، فإن النقاشات حول كيفية تفعيل هذه الأفكار على مستوى القاعدة الشعبية، ستختلف أساسا بحسب مستوى التعليم داخل مجتمعات معينة، وتطور أنساق جامعاتها، وقوة منظماتها غير الحكومية، ونظام الحوكمة.»24

في الفصل الرابع من الكتاب يدافع كل من تريفور مانويل وإيدغار بيتيرس عن فكرة تحقيق التربية المدنية العالمية عبر التضامن العالمي من خلال الدعوة إلى ضرورة ردة فعل جماعية عالمية تتجاوز استقلالية الدول، وبمراعاة الدول القومية في إطار من الحوار البناء والهادئ. ويرى الباحثان أن «فكرة خطاب التربية المدنية العالمية لألتناي وأسلوبها تقف، بشدة، موقف معارض للقراءات البائسة المتمثلة في نقاد بارزين من قبل مايك دافيس Mike Davis25» الذي يقرّ بعجز المجتمع العالمي عن مواجهة تحديات الأزمات الكبرى التي تهدده. وبالانطلاق من بعض المعطيات والبيانات حاول الباحثان تتبع الفوارق في مستويات الفقر والاستهلاك في العالم بالوقوف خصوصا عند التجربتين الصينية والجنوب إفريقية، فخلصا في الأخير إلى «إمكان أن يفتح مفهوم التربية المدنية العالمية مجالات هامة جديدة لمناقشة كيفية ترجمة التضامن العالمي إلى خلق موارد استثمار لمعالجة الحالة الإفريقية»26. وليصبح التضامن العالمي ساري المفعول على أرض الوقع فإن العالم _حسب الباحثيْن- يحتاج إلى نزاهة أكبر، «فمن الخطأ الجسيم التفكير في إمكان ترك هذه الواجبات في أيدي الدول لتؤديها. ويذكرنا ديفيد هيلد بأن الدول الآن تجد نفسها جزءا لا يتجزأ من مجموعة من العلاقات الاجتماعية والسياسية الأكثر تعقيدا، التي تؤدي إلى عالم ذي قوة وسلطة متعددة الطبقات، وإلى أشكال حوكمة معقدة بشكل متزايد»27. إن العالم يحتاج إلى نوع من الإجماع بدل التشبث بالصراع لتحقيق شمولية إنسانية.

في الفصل الخامس أراد الباحثان تارا هوبكينز وتوسون تيرزيوغلو مشاركة المهتمين قصتهما حول الفرصة التي أتيحت لهما «في جامعة سابانجي لتصميم برنامج قصد مشاركة مباشرة من لدن كل الطلاب الجامعيين: برنامج مشاريع المشاركة المدنية»28. ويقدم هذا الفصل تفاصيل هذا المشروع سواء من حيث المحتوى بشكل عام أو من حيث الوعاء الزمني والغايات لمرجوة والإكراهات التي صادفها المشروع الذي أراد له مهندسوه أن يكون الجانب الأساسي فيه «تدريب الطالب، وهي العملية التي يتم أجرأتها على مستوى أكثر بساطة بحيث يشمل أهمية عمل الفريق، وحل المشكلات الابتكارية، كما يشمل ربما أمرا أكثر من كل ذلك أهمية، هو النظر إلى عمل الفرد عبر أعين أولئك الذين يسهرون على المنظمة ذات الصلة بالتخصص.»29

ثالثا: نحو منهاج دراسي تربوي

مما لا شك فيه أنه لا مندوحة لدعاة التربية المدنية العالمية عن التأكيد على أهمية الجامعة باعتبارها الفضاء الخصب لبذر الأفكار «التجديدية»، لهذا فإن هاكان ألتناي جعل القسم الثاني من كتابه مقصورا على بسط أفكار تطمح إلى بناء تصور متكامل لوضع منهاج دراسي كفيل بنقل فكرة التربية المدنية من المستوى النظري إلى المستوى الإجرائي. ومن هذا المنطلق، فإن هاكان يرى أن مناقشة التربية المدنية العالمية لا تستلزم بالضرورة، «شكل فصل دراسي مكون من أربعة عشر أسبوعا، ويمكن أن يجتمع الطلبة ويستكشفون هذا الموضوع من خلال قائمة من المراجع المتفق عليها. كما أنه بإمكان الطلبة غير الموجودين في بيئة أكاديمية الانخراط في مسعى مماثل مع أقرانهم.»30 ولتفعيل ذلك إجرائيا يقترح المؤلف تسع ورشات عمل موزعة وفق محاور محددة بدقة تضم قضايا تستأثر باهتمام الإنسان المعاصر، كما ينبغي على هذه الورشات أن تتسم بالتنوع، «فلا ينبغي أن يشتمل البرنامج المدرسي فقط على الأعمال التثقيفية، بل يتعدى دورها ذلك ليشمل أيضا الأعمال الوثائقية، والمواقع العنكبوتية، والأعمال الأدبية»31. والغاية من ذلك، إثبات امتدادات الترابط العالمي والتأكيد على أنه حقيقة نعيشها، وما علينا سوى الوعي بها، وجعلها ذات فعالية في حل القضايا العالمية الشائكة. ومن تجليات ذلك الامتداد ما نجده في الفصل السابع؛ فقد خاض هاكان ألتناي في غمار الأدب ليثب أن الأعمال الإبداعية قادرة على ترسيخ التربية المدنية العالمية، «من دون أن يتم ذلك بالضرورة عن قصد؛ فالفن والأدب يثريان الوعي البشري وضميره، ويعملان على تقوية الأواصر المشتركة للإنسانية»32. إن تدريس الأعمال الأدبية باستكشاف قيم التربية المدنية العالمية التي تتضمنها من شأنه أن يقدم إضافة نوعية للمشروع الفكري الذي ينادي به هاكان ألتناي، وذلك لما يمتلكه الأدب من قدرة تأثيرية في المتلقي وبشكل سلس يبتعد عن التلقين المباشر.

وليتضح التصور التطبيقي بشكل أوضح يأتي الفصل الثامن من الكتاب ليقدم لنا «منهجا دراسيا لتربية مدنية عالمية للفترة الممتدة ما بين -2011 2012»؛ إذ تم اقتراح نموذج لمنهج دراسي يحتوى على أربع عشرة حصة دراسية عن التربية المدنية العالمية وما يتصل بها من حقوق ومسؤوليات التي ليست بالضرورة «مرتبطة بالضرورة بعضوية كل شخص في دولة معينة أو مؤسسات دولية معينة، ولكنها في أغلب الحالات منسجمة مع حقوق الفرد وواجباته داخل بلده، ولا تحتاج إلى دولة عالمية.»33

ويوزع غراهام فينلي وفوسي غوميد هذا الفصل، وبالتالي المنهج الدراسي المقترح، إلى جزأين متوازيين من حيث عدد الأسابيع المخصصة لتنزيل المشروع التربوي، فقد تضمن الجزء الأول المخصص للترابطات ستة أسابيع تتناول على التوالي القضايا الآتية: (البيئة، الموارد، التجارة ورأس المال، المجال العام العالمي، المجتمع المدني العالمي، الدين) بينما خصصت الأسابيع الست من الجزء الثاني المخصص للحقوق والمسؤوليات لقضايا لعدد من القضايا المدنية والقانونية والسياسية والاجتماعية. وقد أرفق كل أسبوع من هذه الأسابيع بملخصات للمحتوى وأسئلة مؤطرة، وكذا المراجع الأساسية التي يحتاجها الباحث. لكن ما يؤخذ على الكتاب بصفة عامة غياب تقييم فعلي للأفكار والتصورات التي يطرحها، فقارئ الكتاب يتتبع جملة من التصورات والأفكار والبرامج المقترحة نظريا، غير أنه لا يجد أدلة تثبت جدوى تلك الأفكار، وهذا أمر قد تقف عليه كتابات أخرى التي من الممكن أن تواصل على الدرب ذاته.

خاتمة:

في ختام هذه الدراسة، لا بد من التأكيد على أهمية القضايا التي يطرحها هذا الكتاب الذي يثير عددا من الإشكاليات المرتبطة بتحولات واقعنا، المتسم من جهة «بالتنظيم الشامل بسبب علاقات الترابط بين الدول ويظهر التاريخ الحديث لكوكبنا بوضوح أن مصير الرجال والنساء يمكن أن يتأثر بالأحداث التي توجد على بعد آلاف الأميال من مكان عيشهم»34، لكنه يتميز أيضا بأنه مجتمع أصبحت تطغى عليه النزعة الفردانية، «فالمجتمع الحديث يقوم على النشاط المتواصل الذي تحدثه سيرورة النزعة الفردية أو ما يسمى «التفريد» (individualization) مثلما تقوم أنشطة الأفراد على إعادة تشكيل شبكة العلاقات المتشابكة المتبادلة التي يقال لها «المجتمع»، فلا يستقر أي منهما في موضعه زمنا طويلا»35. لهذا أصبح رد الاعتبار للجماعة في أوسع تجلياتها أمرا حتميا، وذلك من خلال تربية مدنية عالمية تؤسس جوهرها على تمتين العلاقات الإنسانية انطلاقا من مبدأ وحدة المصير والترابط الشديد الذي أضحى يجمعنا. لكن إلى أي حد يمكن رؤية الأفكار التي يستعرضها الكاتب على أرض الواقع؟

إن الإجابة عن هذا السؤال لا يمكن أن تتم إلا عن طريق تراكم عدد من الدراسات في الموضوع؛ إذ لحد الآن يرى المبشرون بالتربية المدنية العالمية أن الجامعة هي الفضاء الأنسب لإشعاعها، وبالتالي فإن الحيز الزمني الذي نحتاجه لنرى ثمرات التصور النظري سيكون طويلا ومحفوفا بكثير من المخاطر المنهجية. كما أن إكراهات العالم على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي لا يمكن تجاوزها بسهولة لتغلغلها في اللاوعي الجمعي. لكن على الرغم من كل ذلك لا يمكن أن ننكر بأن الأفكار التي يوردها الكتاب تحظى بكثير من القبول عند فئة واسعة من الباحثين والسياسيين والمؤمنين بمستقبل المجتمع المدني.

الهوامش:

1 -ألتناي، هاكان. التربية المدنية العالمية: مسؤوليات وحقوق في عالم مترابط، تر: عبد النور خراقي، سلسلة «دراسات فكرية» الطبعة الأولى، بيروت لبنان، 2019. صدر هذا الكتاب في نسخته الإنجليزية تحت عنوان:
Global Civics: Responsibilities and-Rights in an Interdependent World, (Washington, D.C.: Brookings (Institution Press ; 1st edition, edition (January 18, 2011.

* أستاذ بجامعة سابانجي بإسطنبول ورئيس أكاديمية التربية المدنية العالمية بالولايات المتحدة، كما يعمل مديرا للمعهد الأوروبي للسياسة: info@altinay.com
** أستاذ باحث في الأدب والفكر، دكتوراه في الأدب العربي الحديث 2010: fouadaffani@yahoo.com
*** أستاذ اللسانيات والمثاقفة بقسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الأول بالمغرب: a.kharraki12@gmail.com

2 -ألتناي، التربية المدنية العالمية: مسؤوليات وحقوق في عالم مترابط ، المرجع السابق، ص23.
3 -المرجع السابق، ص20.
4 -المرجع السابق، ص9.
5 - المرجع السابق، 23
-6 المرجع السابق، 23.
7 - المرجع السابق، ص13.
8 - المرجع السابق، 17
-9 ملكاوي فتحي حسن. «القيم العالمية « الفكر الإسلامي المعاصر (إسلامية المعرفة سابقا)، مجلة فكرية فصلية محكمة يصدرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي، السنة 14، العدد 56، 2009، ص8.
10 -ألتناي، التربية المدنية العالمية: مسؤوليات وحقوق في عالم مترابط، مرجع سابق، ص29، 30.
11 - المرجع السابق، ص30.
12 - المرجع السابق، ص32، 33.
13 - المرجع السابق، ص33.
-14 المرجع السابق، ص33
-15 المرجع السابق، ص34.
16 -المرجع السابق، ص36.
-17 المرجع السابق، ص39.
18 -المرجع السابق، ص ص53.
19 -أجرى هاكان ألتناي هذه الحوارات مع كل من: بالفير أرورا، جوناثان فانتون، وديفيد هيلد، وأندري كورتونوف، وإيفان كراستيف، وريكاردو لاغوس، وتوماس بوج، ودانى رودريك، وديفغلي شين وخافير سولانا.
20 -المرجع السابق، ص61.
-21 المرجع السابق، ص106_107.
22 - المرجع السابق، ص108.
23 -المرجع السابق، ص109.
24 -المرجع السابق، ص113.
25 -المرجع السابق، ص116.
-26المرجع السابق، ص 134.
27 -المرجع السابق، ص138_ 139.
28 -المرجع السابق، ص ض147.
29 -المرجع السابق، ص149.
-30 المرجع السابق، ص155.
31 - المرجع السابق، ص-155 156.
32 - المرجع السابق، ص 169.
33 -المرجع السابق، ص181.
34 - أليسيا، كابيزودو، وآخرون. الدليل التطبيقي من أجل المواطنة العالمية: مفاهيم ومنهجيات التربية من أجل المواطنة العالمية لاستعمال المربين والمسؤولين السياسيين، إعداد شبكة أسبوع التربية من أجل المواطنة العالمية بالتعاون مع مركز الشمال - الجنوب لمجلس أوربا - لشبونة 2008، الترجمة للعربية: عفاف مبارك وطارق محضاوي، ص22.
35 - زيجمونت، باومان. الحداثة السائلة، ترجمة حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، الطبعة الأولى 2016، ص76-77.

البحر كان يعرفني

عبد النبي دشين

كان البحر هادئًا، لكن صوته يحمل في طياته صدى حزنها. جلست على الرمال، رأسها منحني ويداها تغوصان في الحصى كأنها تبحث عن شيء مفقود. الرياح تلعب بشعرها، بينما عيناها تراقبان الأفق بلا هدف.

فجأة، ارتطمت قنينة زجاجية بصخرة قريبة، كأن البحر يلفظ سرًا قديمًا. تقدمت نحوها بخطوات مترددة، تلتقط القنينة بحذر، وداخلها لفافة ورقية قديمة.

فتحتها ببطء، قلبها ينبض بتسارع غريب. كانت الكلمات مكتوبة بخط يد دافئ، لكنها شعرت وكأنها تعرفها. «إلى تلك الروح المرهقة التي تحتاج إلى تذكر قيمتها...» بدأت الرسالة.

مع كل كلمة تقرؤها، شعرت وكأنها رسالة موجّهة إليها بالذات. الكلمات تحكي عن وجعها، عن أحلامها التي أضاعتها، وعن الأمل الذي تلاشى في زحمة الأيام.

في النهاية، وجدت توقيعًا مألوفًا... كان اسمها. كانت الرسالة منها، كأنها كتبتها لنفسها منذ زمن بعيد، وألقاها البحر ليعيدها لها في هذه اللحظة.

عادت إلى منزلها وهي تحمل القنينة كأنها كنز. خطواتها هذه المرة لم تكن متثاقلة، بل مليئة بشيء يشبه الأمل. دخلت غرفتها وأغلقت الباب خلفها بهدوء. وضعت القنينة والرسالة أمامها على الطاولة، ثم جلست تحدق فيها طويلا.

راحت تعيد قراءة الكلمات مرة تلو الأخرى، كأنها تكتشف جزءًا من ذاتها كان مدفونًا. كانت الرسالة تذكرها بأنها تستحق السعادة، وأن الألم الذي عاشته كان مجرد فصل في كتاب حياتها، لا النهاية.

في تلك الليلة، كتبت على ورقة جديدة: «اليوم، أعد نفسي أن أترك الماضي خلفي. سأعيش للحظة، وأفتح بابًا جديدًا للحياة. سأغفر لنفسي أخطائي، وسأحب نفسي كما أنا».

في الصباح التالي، فتحت النوافذ لتدع أشعة الشمس تغمر البيت. بدأت بترتيب غرفتها، تخلصت من أشياء لم تعد تعني لها شيئا. علقت لوحة جديدة على الجدار كتب عليها: «بداية جديدة».

اشترت دفترًا جديدًا لتكتب فيه أحلامها التي ستعمل على تحقيقها، مهما بدت صغيرة أو كبيرة. قررت أن تبدأ بممارسة هواياتها القديمة، وأن تتعلم أشياء جديدة تعيد إليها شغف الحياة.

وفي المساء، جلست على الشاطئ مرة أخرى، لكن هذه المرة لم تكن حزينة. كانت عيناها تلمعان بشيء مختلف، وكأن البحر يحمل لها وعودًا جديدة.

في اليوم التالي، عادت إلى الشاطئ، ولكن ليس كالسابق. كانت تحمل دفترها الجديد وقلمًا، عازمة على تدوين أفكارها وأحلامها تحت ضوء الشمس وبرفقة صوت الأمواج. جلست في نفس المكان الذي وجدت فيه القنينة، تشعر هذه المرة بأنها أقوى وأقرب إلى ذاتها.

بينما كانت تكتب، لمحت من زاوية عينها رجلاً يسير على الشاطئ، يحمل حقيبة ظهر وكاميرا. بدا وكأنه يبحث عن شيء أو ربما عن مكان مناسب للجلوس. كانت حركاته عفوية، لكن هناك ما جذب انتباهها في طريقة وقوفه وتأمله البحر.

اقترب الرجل منها بحذر، مبتسمًا. «هل تمانعين إن جلست هنا؟ يبدو هذا المكان مثاليًا لالتقاط صورة.»

هزّت رأسها بنوع من الحيرة، وقالت: «بالطبع، تفضل.»

جلس على بعد خطوات منها، وبدأ بتجهيز الكاميرا. بعد لحظات، التفت إليها وقال: «هل تحبين التصوير؟»

تفاجأت بالسؤال، لكنها ردّت بابتسامة خفيفة: «ليس كثيرًا، لكنني أحب الكتابة.»

تأملها بفضول: «الكتابة؟ هذا رائع. أنا مصور، وغالبًا ما أبحث عن قصص خلف الصور. الكتابة والتصوير يتشابهان، أليس كذلك؟ كلاهما يحكيان قصصًا.»

تبادلا الحديث لوقت طويل، عن البحر، وعن الشغف، وعن كيف يمكن للحياة أن تعطيك فرصة ثانية. أخبرها عن رحلاته حول العالم وكيف يسعى للبحث عن الجمال في التفاصيل الصغيرة. بينما شاركته هي قصتها مع القنينة والرسالة، وكيف غيّرت تلك اللحظة حياتها.

قال لها بنبرة واثقة: «ربما هذه الرسالة لم تكن صدفة. ربما كانت دعوة لتبدئي مغامرة جديدة. ما رأيك أن أريك كيف تبدو الحياة من خلال عدستي؟»

وهكذا، بدأت صداقتهما تتعمق، ومعها بدأت أحداث جديدة تغير مجرى حياتها. ربما يكون هو المفتاح لمغامرة غير متوقعة أو شريكًا يفتح أمامها أبوابًا لم تعتقد أنها موجودة.

في الأيام التالية، استمرت لقاءاتهما على الشاطئ. كان يحمل معه دائمًا الكاميرا، بينما كانت هي تحمل دفترها. مع مرور الوقت، عرض عليها فكرة لم تكن قد خطرت ببالها: أن ترافقه في رحلة استكشاف لأماكن جديدة، ليجمع هو الصور بينما تكتب هي القصص التي تراها في كل مكان يزورانه.

قال لها بحماس: «أنت بحاجة إلى رؤية العالم من زاوية جديدة. هناك أماكن مليئة بالقصص التي تنتظر أن تُكتشف، وربما في تلك الرحلات تجدين نفسك بشكل أعمق.»

رغم ترددها في البداية، إلا أن شغفها الجديد بالحياة وفضولها دفعاها للقبول. بدأت رحلتهما من مدينتها الصغيرة، إلى وجهات قريبة. زارا غابات خضراء، وقمم جبال تغطيها السحب، وأسواقا مزدحمة مليئة بالألوان والوجوه.

في كل مكان، كان هو يلتقط صورًا تسجل اللحظة، بينما كانت هي تكتب كلماتها المستوحاة من المشهد. قصص عن الناس الذين قابلتهم، والأماكن التي زاروها، وحتى الأحاسيس التي شعرت بها وهي تكتشف زوايا جديدة من العالم ومن ذاتها.

في إحدى القرى الصغيرة، التقيا بامرأة مسنة تدير مقهًى قديمًا. كانت لديها قصص عن الحب والفقدان، وأصرت على أن تستضيفهما لليلة. جلست المسنة تتحدث عن حياتها،

من أعمال الرسام الإيطالي سانتيني جورجيو

وقالت كلمات جعلت البطلة تفكر: «الحياة دائمًا تمنحنا فرصة ثانية، لكنها تتطلب شجاعة لنقتنصها.»

مع كل محطة في رحلتهما، شعرت البطلة بأنها تتحرر أكثر فأكثر من قيود الماضي. بدأت ترى العالم كلوحة كبيرة مليئة بالألوان التي لم تكن تعلم بوجودها.

وفي إحدى الأمسيات، وهما يجلسان أمام نار وقدت في ساحة المكان الذي يقيمان فيه خلال رحلتهما تحت سماء مليئة بالنجوم، التفت إليها وقال: «هل تعلمين؟ أنت تبدعين في تحويل كل ما نمر به إلى قصص. ربما حان الوقت لتفكري في كتابة كتاب يوثق هذه الرحلة.»

نظرت إليه بدهشة، لكنها شعرت أن الفكرة ممكنة. ربما هذه الرحلة لم تكن مجرد هروب من الماضي، بل بداية لإعادة تعريف حياتها.

بعد أشهر من السفر والاستكشاف، كانت البطلة تجلس في مقهى صغير يطل على الجبال، تتأمل الدفتر الذي امتلأ بالقصص والتأملات. شعرت أن الوقت قد حان لتجميع كل تلك اللحظات في شيء أكبر... في كتاب.

بدأت تكتب عن رحلتها كما عاشتها، عن الحزن الذي حملته إلى الشاطئ في البداية، وعن الرسالة الغامضة التي أعادتها إلى الحياة. كتبت عن لقائها مع المصور الذي أصبح جزءًا من مغامرتها، وعن الأشخاص الذين التقوا بهم، والأماكن التي فتحت لها أبوابًا جديدة للأمل.

كانت تعود بكل فصل إلى نفسها القديمة، إلى تلك المرأة المكسورة التي جلست على الشاطئ، وتقارنها بالمرأة التي أصبحتها الآن. كلماتها كانت مليئة بالصدق، تحكي عن الألم، عن الأمل، وعن القوة التي لم تكن تعرف أنها تمتلكها.

اختارت أن تسمي كتابها: «رسالة إلى نفسي»، في إشارة إلى تلك الرسالة التي وجدتها يومًا ما، والتي كانت نقطة التحول في حياتها.

بفضل دعم المصور، الذي أصبح أقرب أصدقائها، تمكنت من إرسال مخطوطتها إلى دار نشر صغيرة، لم تتوقع أن تثير اهتمام أحد. ولكن بعد أسابيع، تلقت ردًا مفاجئًا: دار النشر أحبت الكتاب وقررت نشره.

عندما صدر الكتاب، لاقى استقبالًا حارًا. قراء كثيرون شعروا بأن قصتها تشبه قصصهم، وأن كتابها ألهمهم للبحث عن فرصة جديدة في حياتهم.

في إحدى حفلات توقيع الكتاب، اقتربت منها امرأة شابة تبدو عليها علامات الحزن نفسها التي كانت تحملها يومًا. أمسكت بنسخة من الكتاب وقالت لها: «قصتك منحتني الأمل. شعرت وكأنها رسالة لي أنا أيضا.»

ابتسمت البطلة، لأنها أدركت أن رحلتها لم تكن فقط لإعادة اكتشاف ذاتها، بل لإلهام الآخرين أيضا.

جلست البطلة في نفس المكان على الشاطئ الذي بدأ فيه كل شيء، هذه المرة بابتسامة عريضة ونسخة من كتابها بين يديها..

خيمياء المَرايا....

محمد شاكر

تُرَكِّبُ مِنْ أَمْشَاجِ الْيَوْمِيِّ ،
مَحَالِيلَ كَلَامٍ ،
يَنْدَاحُ مَرَايَا ، بِشَتَّى الْأَلْوَانِ؛
وَشُرُوخًا عَلَى الْحَوَاشِي .
لَا تَرْأَبُ صَدْعَهَا الرَّغَبَات.

بِعَفْوِيَّةِ الرُّوحِ ،
أَبْدَعُ مِمَّا كَانَ ،
مِن صَوْلَةِ كَلَامٍ ، بَارِدِ الْحِسِّ ،
فِي تَارِيخِكَ الشَّخْصِيِّ ..

مَقْهَى فلُورَانْس بمكنَاس
20.08.2024

التَّرَاكِيبُ ، أَحْيَانًا ،
مَحْضُ رَمَادٍ ،
عَلَى مِنْفَضَةِ الْوَرَقِ الْأَبْيَضِ؛
تَشُوبُ خَيْمِيَاءَ الْمَكَانِ؛
قَبْلَ اشْتِعَالِ الْحَرْفِ؛
بِبَهَاءِ الرُّؤَى ، وَوَهَجِ
الْمَعَانِي.

لَا الْمِرْآةُ بِوُضُوحِ انْعِكَاسٍ ،
وَصَفَاءِ ضَوْءٍ؛
كَمَا تَخَايَلُ فِي سُوَيْدَاءِ
قَلْبٍ ،
وَلَا خَيْمِيَاءُ الْمَكَانِ ، مَكَانُك ،
فِي سَالِفِ الْعَنَاصِرِ ،
يَضُوعُ بِرَائِحَةٍ ،
تَعَتَّقَتْ فِي الْوِجْدَانِ.

وَالْخِيمِّيَاءُ ، أَحْيَانًا ،

بريشة الرسام البريطاني فرانسيس باكون

حركية الزمن في شعر مليكة العاصمي

الجزء الثاني

مصطفى الشاوي

ديوان «تصبح فرسا» نموذجا

لا أحْمِلُ مِنْ عودي غَيْرَ ظِلالٍ واهِنَةٍ/ يَشْرَبُها مِلْحُ الْأَرْضْ*

لا تجعل الشاعرة الحلم منخرطا في دائرة الزمن المتعارف عليه على مستوى الظاهر، بل تجعله خارجا عنه، وكأن الحلم هو اللازمن، فلا يصح معه الحديث عن زمن الحلم، لأنه لم يتشكل زمنيا، وإن تشكل فنيا وشعريا في تصور الشاعرة، ويعكس هذا الأمر جوهر الرؤيا التي تؤمن بها الشاعرة مليكة العاصمي، وتسعى إلى تشكيلها فنيا وفكريا، بحيث يتهيأ للقارئ وكأن الذات الشاعرة تضمر عقدة نفسية تجعلها تتخيل الزمن والزمان كليهما مقترنا ببنية الخيبة والانكسار والهزيمة، ويشكل هذا قاعدة، وما ينزاح عنها استثناء؛ ويمكن أن نتحقق من هذا المعطى من خلال عملية جرد لعدة ملفوظات تصب فيها الشاعرة جامّ غضبها على الزّمن. ولنا أن نلاحظ الصورة الشعرية في قول الشاعرة:

وَحْدك الآن
يفترسُ الرّخ قلبك
شبحا صرت
دونَ ماض ولا حاضر ولا غد41.

وتتحَّيل الشاعرة وكأن الزمن كائن خرافي وأسطوري، يقتفي أثر الإنسان، ويوشك أن يفتك به ويفترسه، وهي صورة وإن احتكمت إلى سياقها الخاص، فإنها تعكس عموما عمق الإحساس بالغربة، في زمن لم تتحقق فيه أدنى شروط العيش الكريم. وعلى هذا الأساس تعكس بعض الملفوظات الشعرية موقفا واضحا من الزمن على امتداده، ليس الحاضر فحسب، بل الماضي والمستقبل أيضا، وهو شعور نابع من قناعة ترسخت لدى الشاعرة نتيجة طول الانتظار من جهة، ونتيجة امتداد زمن المعاناة اللامتناهي، وهو ما يضمر رسالة كون الزمن لا يؤتمن جانبه:

أيُّها الغريب
لتدعْ خلفَ ظهرك ما يقضم الزّمنُ الوحشُ
عَدْ للقيامةْ
هُناك بقايا الدّمار
التقطها
وَرمّم بها ما تبقّى من النّكبة الداهمةْ
وأخرجْ بقاياكْ
لستَ سوى الرُّخّ من قبلُ
والآنْ
اجْمعْ شظاياكْ
استقمْ واقفا
واتّئدْ
وتهيأ لمكر الزمان الجديد51.

وزمن القبض على الحلم يظل صعبا وعسيرا لأن شعر الرؤيا والرؤيا صورة باطنية واستباقية يصدر عن معرفة عميقة بالأشياء، وعن وعي تأملي وفلسفي للأمور؛ أي هو سقوط الشاعر على الأشياء من منظوره الخاص حتى يصير الوجود الموضوعي هو رؤيته لهذا الوجود، وليس الوجود ذاته. كما في شعر الفلاسفة والمتصوفة وبعض الغزليين، ويمكن ملاحظة هذه الظاهرة الشعرية بوضوح شديد. لأن هؤلاء وغيرهم ممن هم من زمرتهم، «يتعاملون مع الكون والإنسان والأشياء من خلال موقف عال. فالمتى والأين والكيف تشكل محور عالمهم الحياتي والجمالي وتزحف بالضرورة على كل معالجاتهم الفكرية والفنية»16. فهو على خلاف شعر الموضوع الذي يكون موضوعه محددا سلفا.

وتحضر بديوان (تصبح فرسا) نصوص قليلة يغلب عليها الموضوع ولا تيب عنها الرؤيا، ونصوص رؤياوية تخفي موضوعها وهي الهيمنة؛ وفي هذا السياق تعكس نصوص كثيرة بالديوان معاناة الذات الشاعرة وصراعها زمن القبض على الرؤيا، كما في نص (تعصرني الأفعى) بحيث تصور لحظة الكتابة وصراعها مع القصيدة كمهرة مهتاجة هوجاء عذبة وبهية تضمر الفتنة والإغواء وتمارس التحريض، قصيدة لا يريم غمزها، تصارع الشاعرة وتعصرها كأفعى، طول زمن الليل، في انتظار زمن الفجر. والشاعرة تصور الجانب الإغوائي للقصيدة في تفاعل تام مع الجانب الجمالي وكأنهما وجهان لعملة واحدة.

ولزمن التوقع صور متعددة في الديوان، أدناها دائرة الذات بمختلف مسالكها، وأقصاها دائرة الوطن بتباين أفيائه، وينال الوطن مكانة أثيرة عند الشاعرة مليكة العاصمي، فهو الكل ولا شيء دونه، تعشقه الشاعرة عشقا كبيرا، في الصورة التي تود أن تراه فيها؛ جميلا وكريما، متقدما ومتحضرا، سالما وغانما، مستقرا وآمنا... وتبغضه في الصورة التي لا ترتضيها له. فالشاعرة على سبيل الالتفات تصرف القارئ عن الصورة الأولى نحو الثانية، والعكس صحيح، وهو ما تسلكه في كثير من نصوص الديوان:

وَطنٌ يَملك الدّنيا
وتهابُه
مِنْه
يَرْتَعبُ العادونْ
يَمْتدّ مسافات في
الزّمن الآسرِ
منْه
يَنتشرُ النّورْ
وطنٌ يَصْرَعهُ
البَغْيْ
أينَ بنيه
حُماتُه
أيْنْ؟
مثلما تَحْملُ
الأرضُ بالأَرْجانَة
تَحْمِلُ يا وَطني بالنُفاياتِ والقَش71

بنية الزمن الانزياحي

استنادا إلى ما سبق يتبين أن الزمن يتشكل ويتأرجح وفق بنيتين متداخلين بنية سطحية تتبلور من بنى صغرى، وبنية عميقة كبرى؛ الأولى يتم فيها التصريح بالزمن لفظا بدوال معجمية تشكل بنيته، بحيث وردت بشكل مطرد في المتن الشعري المدروس. مما ينم على أن الشاعرة تُنَبِّرُ على الزّمن مبنى ومعنى. وهو ما بيناه آنفا. وبإمكان القارئ أن يقف عند أهم الشواهد الشعرية الدالة على الزمن، مثل قول الشاعرة، تمثيلا لا حصرا:

ودارَ الزّمانُ عَلى الْحلمْ81.
سَأطوي الزّمانَ غناءً91..

أما بنية الزمنَ المضمرة والعميقة فتنمُّ عن الوعي الشعري الضمني الكامن وراء الملفوظات القولية، والمتوارِي خلف جدار اللغة، والنافر والمنزاح عن الفهم الأولي السطحي للزمن، لأنه يستند إلى فهم تأويلي يستوعب الدّوال اللغوية ومضمراتها العميقة. ولو تأملناها سندرك أنها تستوعب مفهوم الزمن وفق تصور تخيلي وتخييلي متوقع. لا يؤمن بسيرورته بل يراهن على الزمن كصيرورة، أي تجاوز الحال الذي تعكسه نصوص الديوان، إلى المآل الذي تؤمن به الشاعرة كاستشراف تأملي:

جاء البحْرُ يُكلِّمُها
ويُفيض على قلبها منْ رغوتها السَّمحاءِ
فيوضاً.
أكثرُ ما يغْمُرُها منهُ
سرابٌ يعبُرُ أشلاءَ الروحِ
وبنثْرُها في يمٍّ
مغموسٍ بالغُصّةِ والأوجاعْ.
شفيفٌ قلبُها
إذْ تصْفَعُهُ الموجةُ
يَعْوي منْ لوعته
حَتى تتوزع صَرْخَتُه
أنيابُ الزمن الآفلِ
والزمن القادمِ
والزمن المأمولْ02.

زمن الحلم المتخيل يسكن أغوار النصوص الشعرية، ويحرك بُناها الداخلية، كما يسكن الذات الشاعرة مليكة العاصمي ويحرك وجدانها، وهو زمن منصهر مع ذاته ومنسجم مع غايته، لا تحكمه ظوابط معينة، لأنه مرهون بالمستقبل، ومشروط بعوامل ذاتية وموضوعية؛ وترسم نصوص الديوان المقروء أهم تطلعاته وإشراقاته، ولا نكاد نجد نصا شعريا يخلو من هذا التطلع الاستشرافي، بحيث نحس بالذات الشعرية مشدودة انشدادا قويا إلى قضايا الأمة وشؤون الوطن. تقول في نص)حَبْوا أجيءُ القُدْسَ وإخْوَتها(، وقد استهلت النص بملفوظ شعري «آتيك» الدال على زَمن الحاضر، ويتردد في بداية كل مقطع شعري، ليؤكد أن الفعل وعد لا رجعة فيه، لكن سرعان ما تغيره الشاعرة للإحالة على زمن المستقبل «سآتيك» وكأنها تدرك بعد حين أنها وحيدة وغريبة، وأن الواقع لا يسعفها، فلا مناص لها من المراهنة على زمن المستقبل المشمول بالأمل والحلم والتوق:

أجيئُك حبْواً
أجيئكَ تحتَ القنابلِ

وسْطَ تهاطلِ مَطَرِ النّارْ
أجيئُك
يَدْفَعُنَي الْهَلَعُ المُرْ
أناديك
يا أمّتَاهْ
لا تتركيني وَحيداً أقاومُ سطْوَ الجحيمْ12.

وزمن الواقع الشعري المعيش في (تصبح فرساً) تبلوره نصوص شعرية كثيرة، وتحتضنه على مستوى بنيتها الظاهرة، ويتجلى بوضوح في عدة نصوص شعرية تضمّنها الشاعرة رسائل قوية مشفرة وجريئة، توجهها إلى المسؤولين عن الوضع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الذي تعيشه البلاد والعباد، من أهم النصوص الشعرية المندرجة في هذا السياق نص (تزميم 2014(الذي يعتبر صرخة قوية احتجاجا على كثير من الممارسات الطائشة، والاجراءات التي تفتقر إلى شروط الحرية والحق في الاختلاف والتعبير عن الرأي والموقف. والنص وإن اعتمد وتعمَّد أسلوبا تقريريا مباشرا إلا أنه نص شعري مشحون بالإشارات والسخرية والرموز والعلامات الدالة والمبطنة سياسيا وإيديولوجيا. وتتدفق اعترافات الشاعرة عبر النّص تدفقا شعريا قويا لا ينتهي إلا مع انتهائه. نص مشهود وشاهد على ظواهر ومظاهر معاناة المواطن من ممارسات قمعية لا إنسانية. تقول الشاعرة في مستهله:

أعترف هنا
بحضور أمين السرّ الدائم
وَحُضور الوزَراء
وأحْزاب الويوي
والنو نو
والنو وي
والوي نو
وحضور العملاءِ المرتزقةِ
واللوبيات
ورجال الإعلام المأجورينْ22...

وعبر الشعر وحده والغناء صنوه تتخطى الشاعرة جسر الواقع ويتعالى صوتها حين تشرُف بالزمان وبالمكان المتخيلين، في لحظة الفورة الشعرية، وكما في (سأغني الليلة أغنيتي) تأتي القصيدة مسجورة بالعشق، ومسكونة بالشوق، ومشحونة بنبرة التحدي والصمود، ومجمولة على بساط الخيال، تنتشي فيها الذات الشاعرة، وتَنْشُدُ وتُنْشَدُ ما لم يتحقق في زمن الحرمان، زمن الخيبة والضياع، وكأن الشاعرة تثبت من خلال هذا وذاك، وبين الفنية والأخرى، تشبثها بأملها وحلمها وعزتها ورفعتها وتحديها وصمودها وعدم استسلامها لكل ما من شأنه أن يثنيها عن عزمها. ومن منهل هذا العمق الشعري يتم صرف معين دلالي خالص فيه ماء ورواء ينم عن صفاء الذات الشاعرة وانتشاءها، واللحظة الشعرية الجذلى ورقيها، وإشراقات العوالم الشعرية واستشرافاتها، وأحلام النفس الإنسانية وآمالها الكبيرة والعريضة. إنه البديل الذي تسعى الشاعرة إلى تحقيقه على أرض الواقع، وتجد فيه عزاءها، والخلاص حيث الانعتاق من أسر الزمن القاسي واعتناق زمن الحلم الباسم:

أسْري وَحْدي رَغْمَ اللوعة والأصْفاد
أشْرُق بالزَّمان وبالمَكان
وَأستعينُ علىَ الرّزايا بالسّلامِ
والأمانْ32.

وتعكس عدة نصوص شعرية هذا التأرجح بين بنيتين متفاعلتين، يختلف حضورهما باختلاف طبيعة الاستلهام والمعالجة الشعرية، وقد تنعكسان في نص بعينه، وقد تتواريان كما قد تهين إحداهما على الأخرى، وحتى عندما تسعى الشاعرة إلى التخلص من أسر بنية ما في نص معين، يغلب عليها الانزواء إلى الركن الآخر، وبين هذه وتلك يولد النص الشعري، وينمو ويستوي على سوقه. تقول الشاعرة في نص (تأبيد):

عَساكَ
عَساي
عَسانا
نُخاصرُ شيئاً منَ الفرح المتآكِل
ثم نجوبُ شوارع عالمنا الأزلي
نَسيرُ بأفيائه كالفراشات
تحفزنا ذبذباتُ الصّباحات

عتباتُ المَساءات
من أيِّ كهف يحرّضنا الصَّوتُ
من أينَ يَصدر هذا الحنينُ
الكئيبُ
المعذّبُ
أينَ جوانحنا المُلسُ
أينَ بِدانا
لِمَنْ قذفت كُرَتانا
كَأنّ بنا من هَوى العابثينَ طَنينْ؟
قويّا يئنْ
ها هنا سَيَظلْ.42

وهكذا يحس قارئ الديوان بالشاعرة وهي تعيش هذا التأرجح الذي يؤطر نصوص الديوان ضمن بنيتين متداخلين ومفارقتين، فقد تهيمن إحداهما على الأخرى لكن يصعب أن نؤطر نصا ما ضمن هذه البنية أو تلك، نظرا للتداخل القائم بينهما، والتفاعل المنشودُ تحققُه، ولا نكاد نجد نصا شعريا خالصا، فإن وجد فاعلم أن ظاهر قوله يخفي باطنه، ذلك أن المنطوق من القول الشعري يخفي المفهوم الذي لا يعكسه ظاهره؛ وهكذا فرغم أن تربة الواقع قاحلة وأرضه جافة إلا أن الشاعرة تأبى، عبر التفاتها، إلا أن تستنبت شتلاتها الطرية التواقة إلى الخصب والرواء والنماء والعطاء. ويمكن أن نعْمد إلى مقاربة تفاعل البنيتين وتأطيرهما للمدلول الشعري لنصوص الديوان على الشكل التالي:

البنية الظاهرة ـــــــــــ التعدّد = زمن الواقع
البنية المضمرة ـــــــــــ التوحّد = زمن التوقّع

خاتمة

تبين أن للزمن علاقة قوية بالشعر، كما للشعر علاقة حميمة بالزمن، ولا يمكن الحديث عن أحدهما بمعزل عن الآخر، وأنْ يشكل الزمن بؤرة في تجربة شعرية معينة معناه أن تجسد مع الشعر وحدة منصهرة في رؤيا تهيمن هيمنة تامة، حتى تصبح ديدن الشاعر ومنتهى متخيله الشعري. وتبين أن الزمن مكون أساسي في النص الشعري عند الشاعرة مليكة العاصمي، ومقوم من أهم مقوماته، يتم حضوره وتوظيفه واستلهامه بطرق متعددة، تختلف باختلاف النصوص الشعرية، تتبعا لطريقة نموه شعريا، وطبيعة تشعبه عبر مسالك النص الشعري، والوظائف التي يؤديها في تشكيل متخيل النصوص الشعرية.

وتأكد من خلال شواهد دالة أن النص الشعري عند الشاعرة مليكة العاصمي ظاهره التعدد، وجوهره من قبله التوحد؛ التعدد على مستوى الزمن الواقعي بين الماضي والحاضر والمستقبل، والتوحد على مستوى الزمن المتخيل، وهو زمن شعري خالص لا ميقاتي؛ فالظاهر سيرورة (سينية)، والجوهر صيرورة (صادية). وتبينت إمكانية التمييز في حركية الزمن الشعري بين تأرجحين البطء والسرعة؛ فالأولى سمة للزمن على مستوى الإنجاز الفعلي، لم يتحقق ويظل مؤجلا وحلما وأملا، والثانية صفة للزمن على مستوى القول بدون فعل، يتحقق ونحياه ويمر بسرعة دون نتيجة تذكر.

وتغدو الشاعرة المغربية الكبيرة مليكة العاصمي علامة بارزة في سماء الإبداع الشعري العربي والمغربي الحديث والمعاصر، وقامة شعرية من الصعب قراءة شعرها وفهمه وتحليله -على خلاف الانطباع الأولي الذي قد يرتسم لدى القارئ - في جانب أساسي منه. ويستطيع القارئ أن يتبين مراهنة القصيدة العربية الحديثة عند الشاعرة مليكة العاصمي على الإيقاع الداخلي من خلال التكرار والتعاقب والترابط، وغيرها من العناصر التي يمكن دراستها في علاقتها بالزمن. ذلك «أن الشعر فن وموهبة حيث تكمن القدرة فيه على التلوين الصوتي لإيصال المعنى... بالتنغيم والضغط على الكلمات فضلا على الصوت الجميل المؤثر الذي يسيطر على الأسماع، وعليه فإنشاد الشعر هو أداء للقصيدة وليس القصيدة ذاتها»25. وهو موضوع آخر يظل مفتوحا، كما سيظل شعر الشاعرة مليكة العاصمي مَلَكيّا بالفعل يصعب على القارئ تملّكه وامتِلاكه: وهل يستطيع القارئ تملّك المطر ؟

أنا ما مَلَكْتُ..
ولنْ أكونَ مَليكَةً..
إسْمي مَطَرْ.. 62

قائمة المصادر والمراجع:

- إسماعيل شكري: في معرفة الخطاب الشعري: دلالة الزمان وبلاغة الجهة، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى 2009.
- جون كوهين: بنية اللغة الشعرية، ترجمة محمد الوالي ومحمد العمري، دار توبقال، 1986، ص 174.
- صاحب خليل إبراهيم: الصورة السمعية في الشعر العربي قبل الإسلام، اتحاد كتاب العرب، الطبعة الأولى 2005م.
- علي جعفر العلاق: في حداثة النص الشعري، عمان: دار فضاءات، الطبعة الثالثة، 2013م.
- مليكة العاصمي: كتابات خارج أسوار العالم، الطبعة الأولى، دار الشؤون الثقافية، آفاق عربية، بغداد 1987.
- ملكة العاصمي: تُصبح فرساً، مؤسسة مقاربات للنشر والصناعات الثقافية، المغرب، الطبعة الأولى 2021
- محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري ، الطبعة الأولى ، المركز الثقافي العربي 1985.
- محمد أحمد العزب: «طبيعة الشعر: تخطيط لنظرية في الشعر العربي» منشورات أوراق 85.
- يوسف أحمد: القراءة النسقية: سلطة البنية ووهم المحايثة، الدار العربية للعلوم، بيروت، الطبعة الأولى 2007.

الهوامش:

*-تُصبح فرساً، شعر ملكة العاصمي، مؤسسة مقاربات للنشر والصناعات الثقافية، المغرب، الطبعة الأولى 2021. ص11

14 - الديوان، قصيد: حلول القيامة، ص 23.
15 - الديوان، قصيد: ص 27، 28.
16 - محمد أحمد العزب: «طبيعة الشعر: تخطيط لنظرية في الشعر العربي» منشورات أوراق 85، ص 140.
17 - الديوان، قصيد: تَحْمل يا وطَني، ص 49،50.
18 - الديوان، قصيد: حلول القيامة، ص26.
19 - الديوان: قصيدة، سَأغْني اللّيْلَةَ أغْنيتي، ص14.
20 - الديوان، قصيد: حَتْماً سيؤوبُ، ص58 و59.
21- الديوان، قصيد: حَبْواً أجيءُ القُدْسَ وأخْوَتِها، ص 35، 37.
22 - الديوان، قصيد: تَزْميمْ 2014، ص 66، 67.
23 - الديوان، قصيد: سأغني الليلة أغنيتي ص13
24 - الديوان، قصيد: تأبيد، ص21،22.
25 - الصورة السمعية في الشعر العربي قبل الإسلام، صاحب خليل إبراهيم، اتحاد كتاب العرب، الطبعة الأولى 2005م، ص181.
26 - كتابات خارج أسوار العالم، مليكة العاصمي، الطبعة الأولى، دار الشؤون الثقافية، آفاق عربية، بغداد 1987، ص58

في الحاجة إلى فلسفة للعصر الرقمي

عبد اللطيف الخلفاوي

قبل سنوات غير يسيرة، سمعتُ أبي يقول مُندهشا من تواصله مع أحد أفراد العائلة بالخارج عبر تقنية «السكايب» التي تتيح إمكانية التواصل صوتا وصورة: سيأتي يوم ويصبح الهاتف يلبي كل حاجيتك. هذه الواقعة كانت على الأرجح سنة 2012 أو قبلها بقليل، حيث بدأت الهواتف الذكية تنتشر تزامنا مع الانخفاض النسبي في أسعارها. قبل ذلك، لم تكن الهواتف متوفرة عند العامة، بل كانت حكرا على بعض الناس.. أما العامة فكانوا يتوجهون إلى المخادع الهاتفية العمومية التي اختفت تماما في الآونة الأخيرة، وفي أحسن الأحوال يمتلكون هواتف نقالة عادية.

أما في هذا العصر، عصر السماوات المفتوحة والفضاء الرقمي، لا أحد بإمكانه أن يعيش دون أن يستنشق من هواء التكنولوجيا، هذا الهواء الذي أصبح يحيط بنا من كل صوب، مخترقا الحدود الجغرافية والثقافية، غير عابئ بالثقافات والخصوصيات. الآن تحققت نبوءة أو نباهة أبي، أصبح العمل والعلاج والبيع والشراء عن بعد ممكن، دون الحاجة إلى التنقل. فبفضل وسائل الاتصال الحديثة يمكننا أن نكون في كل مكان في الوقت نفسه، حيث لا وجود لمفهوم الزمان والمكان. والمعرفة والثقافات صارت في متناول الكل. لكن في المقابل قد ترافق التكنولوجيا الحديثة عدة تحديات، كاختلال العلاقة مع العالم الواقعي.

لأن هذه الوسائط لم تعد وسائل للتسلية كما قد يعتقد البعض، بل صارت جزءًا لا يتجزأ من تفاصيل حياتنا، أصبح الإنترنت ضرورة ملحة في كل مناحي الحياة، إذ لا يمكن لأي فرد أن يمر يومه دون أن يحتاجه، بل أكثر من هذا في أوساط الشباب «أصبح خطر الإدمان على الشبكات الاجتماعية، كخطر الإدمان على التدخين، من الأمور التي لم تعد تحتاج إلى إثبات. الفرق بين الشبكات الاجتماعية والتدخين، هو أن التدخين ظهر كعدو لمجتمع يرفع من قيمة الصحة والجسد»(1).

وقد يتسع انتشار التكنولوجيا في المستقبل لتصبح بمثابة أوكسجين، شيء لا يمكن العيش من دونه. ومن يدري؟!.

ولمواكبة هذا العصر وفهم معطياته الجديدة، نحن بحاجة إلى فهم عقلي فلسفي لهذا العلم، ذلك العلم الذي يهتم بتطوير أدوات ومفاهيم تسمح بتحليل وتقييم هذه التغييرات الجذرية التي يسببها تطور التكنولوجيا، ذلك العلم تحديدا الذي يبحث في أسس ومناهج وأخلاقيات ونتائج هذه العلوم الرقمية سلبا وإيجابا ودراسة التحديات الأخلاقية التي تنتج مصاحبة لها.

لأن التكنولوجيا تتغلغل في جميع مجالات الحياة، من العمل والتعليم والترفيه، مما يزيد من مسؤولية الأفراد والمجتمعات في استخدام هذه الأدوات بشكل آمن وأخلاقي. فنحن نتحدث هنا، عن انتقال الرقابة المؤسساتية إلى رقابة ذاتية، خاصة في مجتمعنا العربي حيث لا شيء يعلو فوق صوت التفاهة حد التخمة والتسطيح السائد اليوم على منصات التواصل الاجتماعي، فنحن نعيش في واقع شبيه «بشعور غامر أننا قضمنا أكثر مما يمكن مضغه، بأننا تتم تغذيتنا جبرا مثل الأوز، بأن أكبادنا الفكرية تنفجر»(2).

وعند الحديث عن العصر الرقمي فنحن نتحدث عن مواطنين رقميين وعن مواطنة رقمية، وعند الحديث عن المواطنة بصفة عامة لابد من استحضار ثنائية الحق والواجب والمشاركة السياسية والمدنية، ذلك أن المواطن يمتلك حقوق وعليه واجبات ومسؤوليات، أيضا المواطن الرقمي له وعليه نفس الحقوق والواجبات لكن في سياق آخر، في فضاء آخر لا حدود له، فنحن هنا في سياق ما يسميه الباحثين بانتقال من المواطنة التقليدية إلى مواطنة رقمية، وهو بدون شك انتقال فرضته ظروف التقدم وانتشار تقنيات المعلومات، فالمواطنة الرقمية» تشمل كل التعاملات بين المواطنين عبر شبكة الإنترنت، كالدعوة إلى المشاركة السياسية أو الحث على التكافل الاجتماعي أو غيره، فهي ترتبط بمصطلح الديمقراطية الرقمية»(3).

والمواطنة الرقمية ينبغي أن تكون امتداد للمواطنة «الواقعية» وقيمها التي تنصف الإنسان وتصون كرامته وتساهم في نموه وتقدمه، فمن خلال هذا العالم الرقمي، أصبح الناس يمارسون مواطنتهم وحقوقهم وواجباتهم، فما أحوجنا اليوم إلى تربية على المواطنة الرقمية. لكي يكون الفرد مواطنا رقميا صالحا ومسؤولا، ينخرط في هذا العالم الحديث وهو ملتزم بالسلوك الرقمي الأخلاقي، أي يمتلك أخلاقا وقيما في تعاطيه مع الفضاء الرقمي، وذلك من خلال الوعي الرقمي والاخلاق الرقمية في احترامه لحقوق الملكية العامة والتزامه بكل القيم الأخلاقية، بل أصبحت الحاجة إلى الأخلاق الرقمية ضرورة ملحة. اليوم، أصبحنا نتعامل مع معلومات وبيانات شخصية على الإنترنت بشكل يومي، سواء من خلال استخدام البريد الإلكتروني، أو التواصل عبر مواقع التواصل الاجتماعي، أو حتى إجراء المعاملات المالية الإلكترونية، وأصبحنا كذلك أمام منافس قوي لتلقين القيم والتمثلات والسلوكيات والهويات الثقافية، حيث لم تعد مؤسسة الأسرة أو المدرسة هي المؤسسة الوحيدة التي تنقل هذه القيم.

فنحن اليوم أمام مفاهيم جديدة، أمام مفاهيم الديمقراطية الرقمية والأخلاق الرقمية والمسؤوليات الرقمية... إلخ. والمواطنة الرقمية يمكن تعريفها بكونها مجموعة من المبادئ والقيم التي تهدف إلى تنظيم سلوك الأفراد والجماعات في البيئة الرقمية، أما الأخلاق والمسؤوليات الرقمية فهي جزء من هذه المواطنة، وكل هذه المفاهيم تصب في اتجاه واحد وهو خلق فضاء رقمي آمن ومُنتج. وكل هذه المفاهيم ليست خصما لمرادفاتها التقليدية وليست بديلا لها بكل تأكيد. فهي مفاهيم فرضها الزمن الراهن، زمن التكنولوجيا، «فنحن لن نهاجر إلى مجرة أخرى، يجب علينا أن نقبل العيش مع الأحياء على هذا الكوكب»، كما يقول دانيال كوهين في كتابه (الإنسان الرقمي). لذلك مجتمعاتنا بحاجة اليوم إلى فلسفة للعلوم الرقمية، فلسفة تهدف إلى دراسة الفضاء الرقمي دراسة عقلانية نقدية.

من أعمال الرسام البولندي بول كيشينسك

ومع تطور الذكاء الاصطناعي والواقع الافتراضي وإنترنت الأشياء، من المتوقع أن تزداد التحديات الأخلاقية في المستقبل. سيكون من الضروري تطوير أطر أخلاقية جديدة للتعامل مع هذه التقنيات الحديثة، بما في ذلك كيفية ضمان حقوق الأفراد في عصر الذكاء الاصطناعي، حيث تعد خصوصية الأفراد وحمايتها من أهم القضايا التي يثيرها العصر الرقمي، وكيفية الحفاظ على القيم والهويات التي قد تتعرض للاختراق الثقافي بفعل تداخل المحلي مع الكوني، خاصة مع هذا التهافت والقبول والتزايد الملحوظ في ولوج الشباب إلى منصات التواصل الرقمي، وهو الأمر الذي يتطلب دراسة وتعميق البحث في السياقات الاجتماعية والثقافية التي تؤطر هذه الفضاءات. لأن»كل تكنولوجيا جديدة تحمل في طياتها مخاطر جديدة، وكلما ارتقت التكنولوجيا تضخمت مخاطرها بالقدر نفسه الذي تتعاظم به منافعها»(4).

كما أن الذكاء الاصطناعي والتقنيات الحديثة مثل الروبوتات والخوارزميات المتقدمة بدأت في تغيير العديد من مجالات العمل وقد تنهي وظائف كثيرة، أو على الأصح سيتم الاستغناء عن ما يمكن أن نسميه العمل التقليدي، حيث صارت هناك إمكانيات للتبضع عن بعد دون الحاجة إلى التنقل وصارت هناك منصات كثيرة لمشاهدة الأفلام العالمية دون الحاجة إلى الذهاب إلى دور السينما التي صارت تنقرض، ولم نعد بحاجة إلى عمال تذاكر عوضتهم الآلات الذكية... هذا التحول يثير تساؤلات أخلاقية حول تأثيرات هذه التقنيات على العمالة البشرية، بما في ذلك الأثر المحتمل على الوظائف التقليدية. هناك حاجة لمراجعة سياسات العمل من أجل ضمان العدالة الاجتماعية في ظل استخدام الذكاء الاصطناعي.

باختصار، نتج عن التقدم التكنولوجي مجموعة من التحولات، هذه التحولات أدخلتنا إلى أنماط جديدة من العمل والإنتاج والتفكير وأصبحت تربطنا علاقات جديدة بالزمان والمكان. لذلك نحتاج إلى علم يهتم بالعلاقة القائمة بين الأفراد والعالم الرقمي، كما نحتاج إلى توعية «الشباب الرقمي» بحاجتنا إلى فاعلين ومنتجين في الفضاء الرقمي بدل الاستهلاك والتلقي، وبضرورة تبني سلوكيات أخلاقية مسؤولة، وحماية خصوصياتهم، واستخدام التكنولوجيا بشكل آمن، من خلال التعامل مع الآخرين بأدب واحترام، وعدم نشر أو مشاركة محتوى ضار أو مسيء أو متطرف، والشفافية في التعامل مع المعلومات وعدم نشر الأخبار الكاذبة والمضللة.. إلى غير ذلك من المسؤوليات والقوانين الرقمية التي تحافظ على هذا الفضاء الرقمي وتجعل منه بيئة مفيدة وغير ضارة.

أضف إلى ذلك، ضرورة توعية المستخدمين بالفرص الهائلة التي تتيحها وسائل التكنولوجيا الحديثة للتعريف بالثقافات ونشرها وترويجها، كنشر الموروث الثقافي المادي وغير المادي للحفاظ عليه من التلف والتعريف به وتعليمه للأجيال القادمة، وكل هذا يجعل من التكنولوجيا وسيلة فعّالة تعزز الهويات الثقافية للمجتمعات وتحافظ عليها، فالأمر متوقف على طريقة الاستخدام وعلى نوعية المستخدمين، هل هم مستهلكين ومتلقين أم فاعلين ومنتجين، والاعتزاز بالانتماء إلى المجال والتصدي للثقافة الوحيدة، ثقافة الاستلاب أو ما يمكن أن نسميه ثقافة الغالب، المُنتج والمُصدر لهذه التكنولوجيا، «فقد عانى العالم أجمع من انفراد العولمة بالساحة الكونية: سياسة عولمية تضغط بثقلها على الجميع، واقتصاد عولمي يعمل لمصلحة الكبار ويغري الصغار بوهم اللحاق، وعولمة ثقافية تكاد تقضي على التنوع الثقافي»(5). وهذا ما نصادفه في كثير من الأحيان في منصات التواصل الاجتماعي من ميل بعض الشباب لتقليد ثقافة الآخر، في لغته وهندامه وحتى تسريحات شعره، ظنا منهم أن تلك الثقافة هي رمز للرقيّ والتحضّر.

ومع تزايد التقدم التكنولوجي السريع وتوسع الفضاء الرقمي، بات من الضروري أن نتوفر على إطار أخلاقي يحكم سلوكنا في العالم الرقمي، فالأخلاق الرقمية ليست مجرد مسألة فردية، بل هي مسؤولية جماعية تتطلب التعاون بين الأفراد والمؤسسات لضمان الاستخدام الآمن والمسؤول للتكنولوجيا، وهنا يجب أن يتدخل الفاعل الثقافي الواقعي والرقمي وقيامه بأدوار تربوية وثقافية للنهوض بالمواطنة الرقمية وإنتاج مواطن صالح ومسؤول ومساهم في بناء وطنه.

في النهاية، يمكن للعالم الرقمي أن يكون أداة لتعزيز التقدم البشري، شريطة أن يتم استخدامه بحذر وبمسؤولية أخلاقية، «وتكمن المشكلة هنا في كيف نحمي المبحرين في الإنترنت من الغرق في بحور المعلومات»(6)، وهنا أيضا يكمن السرّ.

هوامش:

1 - دانيال كوهين، الإنسان الرقمي والحضارة القادمة، ترجمة د. علي يوسف أسعد، دار صفحة سبعة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2022، ص 57.

2 - لوتشيانو فلوريدي، الثورة الرابعة: كيف يعيد الغلاف المعلوماتي تشكيل الواقع الإنساني، ترجمة لؤي عبدالمجيد. عالم المعرفة. ص 38.

3 - محمد سيد ريان، الإعلام الجديد، مركز الأهرام للنشر، الطبعة الأولى، 2003، ص 09.

4 - نبيل علي ونادية حجازي، الفجوة الرقمية: رؤية عربية لمجتمع المعرفة، عالم المعرفة، عدد 318 غشت 2005، ص 43.

5 - نبيل علي ونادية حجازي، الفجوة الرقمية: رؤية عربية لمجتمع المعرفة، مرجع سابق. ص 246.

6 - نبيل علي ونادية حجازي، الفجوة الرقمية: رؤية عربية لمجتمع المعرفة، مرجع سابق. ص 232.

مقاربات

مؤتمر علمي دولي بتزنيت

العلامة محمد المختار السوسي عطاؤه العلمي وجهده الإصلاحي

حسن المددي

بمدينة تيزنيت، أيام 19-20-21 فبراير 2025، أقيمت فعاليات «المؤتمر العلمي الدولي للعلامة محمد المختار السوسي – عطاؤه العلمي وجهده الإصلاحي «، وكان ذلك بمبادرة جامعة ابن زهر بأكادير، والمعهد الأوروبي للدراسات الفلسفية ببروكسيل، والمركز المغربي للدراسات والأبحاث التربوية بالرباط، وبدعم مجلس جهة سوس ماسة، والمجلس الإقليمي لمدينة تيزنيت، والمجلس الجماعي لمدينة تيزنيت، وبتنسيق مع عمالة إقليم تيزنيت، وبتعاون مع جمعية الشيخ ماء العينين للتنمية والثقافة. ومركز محمد المختار السوسي للدراسات والأبحاث ونشر التراث، وجمعية محمد المختار السوسي لإحياء التراث الإسلامي.

وفي هذا الإطار، شهدت فضاءات دار الثقافة محمد خير الدين بمدينة تيزنيت حضور جمهور غفير من المثقفين والمهتمين والمتتبعين، وشخصيات وازنة من مختلف المجالات، من بينها نخبة من الأكاديميين والباحثين والمهتمين بالفكر والثقافة من داخل المغرب وخارجه.

وتخللت الجلسة الافتتاحية شهادات في حق العلامة محمد المختار السوسي ومساره الإصلاحي والعلمي، ودوره الريادي في ترسيخ القيم التربوية والأخلاقية، وجهوده في تدوين تاريخ الأرصدة العلمية لمنطقة سوس. وامتدت فعاليات هذا المؤتمر ثلاثة أيام، تخللتها جلسات علمية وأدبية، شارك فيها صفوة من الفقهاء والعلماء والشعراء والأساتذة الجامعيين والطلبة الباحثين، الذين قدموا من مختلف المدن المغربية، وألقوا عروضا تناولت مجالات متعددة مما خلفه المرحوم العلام محمد المختار السوسي، بصفته فقيهًا وعالمًا وأديبًا ومؤرخًا لمنطقة سوس، وهو من عرَّف بكنوزها العلمية والفكرية والأدبية، وبفضله اكتسبت لقب سوس العالمة.

وتوجت الجلسة الختامية للمؤتمر بدعوة الحاضرين إلى حفل ختامي ألقى خلاله الدكتور عبد العزيز بنضو، رئيس جامعة ابن زهر، كلمة أشاد فيها بما بذلته اللجنة العلمية والجنة التنظيمية من جهود مشكورة لإنجاح هذه التظاهرة العلمية التي أعادت الاعتبار لعلم كبير من أعلام المغرب. كما نوه كل من السيد عامل إقليم تيزنيت، والسيدة المنسقة العامة للمعهد الأوروبي للدراسات الفلسفية ببروكسيل، والسيد رئيس المجلس الجماعي لمدينة تيزنيت، والسيد رئيس جهة سوس ماسة، والسيد رئيس المجلس الإقليمي لمدينة تيزنيت، بجهود كل الفاعلين والمساهمين في تنظيم هذا المؤتمر، شاكرين لهم دعمهم الكبير والمتواصل لإنجاح المبادرات النبيلة التي تتوخى المصلحة العامة، وتروم عموم الخير لبلادنا.. وفي الختام تمت قراءة توصيات هذا المؤتمر العلمي الدولي، ثم تليت برقية الولاء والإخلاص، التي رفعها السيد رئيس جامعة ابن زهر بالنيابة عن كافة المشاركين في أشغال الدورة الثالثة للمؤتمر العلمي الدولي «محمد المختار السوسي: عطاؤه العلمي وجهده الإصلاحي»، لصاحب الجلالة الملك محمد السادس، دام له النصر والتأييد.

الخط المغربي الصحراوي: المقصديات الجمالية والوحدوية

د. عبد الوهاب الأزدي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية- مراكش

صدر للدكتور محمد البندوري كتاب بعنوان: الخط المغربي الصحراوي- المقصديات الجمالية والوحدوية، منشورات مؤسسة آفاق للدراسات والنشر والاتصال، مراكش- المغرب، الطبعة الأولى سنة 2024 م .

يتضمن الكتاب الذي يقع في ثلاث وتسعين صفحة، خمسة محاور، إضافة إلى مقدمة وخلاصة، وملحق بوثائق تاريخية بالخط المغربي الصحراوي، وفهرس بالمصادر والمراجع المعتمدة؛ ونسخ منشورات صحفية سابقة عن الخط المغربي الصحراوي.

والكتاب بهذا التصميم القويم، منجز علمي في موضوع الخط المغربي الصحراوي، معززا بالدلائل المادية الملموسة، وبالوثائق المسندة بالمصادر والمراجع.

يهتم المحور الأول من الكتاب بالجذور التاريخية والتكوينية للخط المغربي الصحراوي، الذي جاور أنواعا خطية مغربية أخرى في المراسلات، والنصوص الأدبية والشعرية، وفي استنساخ أمهات الكتب بالخزانات المغربية. وقد نشأ الخط الصحراوي في جنوب المغرب، إلى جانب خطوط شاعت في باقي المدن كالخط الفاسي، والخط السوسي، والخط الدرعي، وغيرها.

والخط الصحراوي هو خط «منحدر من الخط الوطني المغربي»(ص14). ولذلك ورد في ترتيب عنوان الكتاب تاليا كأنه فرع عن أصل، متولد عن مجاله الواسع والمتنوع. وبسبب من ذلك، يمتح الخط الصحراوي من الثقافة المغربية، مع خصوصية جمالية محلية بارزة. فهو خط «يتموقع بين الخط المغربي المبسوط والخط المغربي المجوهر»(ص15). إضافة إلى خاصية «التجريد» ذات الصلة بالعالم الداخلي للمبدع، وبقيم المنطقة(ص21). كما يتصف الخط الصحراوي ب»وحدة القياس والاتزان والتراص والدقة»، والهندسة المتنوعة الأشكال»من استدارات،وتناغم، وحركيات، وسكنات، واسترسالات، وتناسق شكلي، وتوالف مع الإيماءات وأنصاف الاستدارات، والتقويسات، والإخفاءات الحرفية، مما يسهم في مطاوعتها لكل الأشكال الفنية، ويمنحها بعدا جماليا مغربيا خاصا» كما يقول المؤلف(ص21)

وتتميز الزخرفة الخطية الصحراوية بجمالية خاصة في إبداع النعال الذي يمزج بين الخط الصحراوي والزخارف المغربية المتنوعة(ص20).

وتذكر المصادر منظومة في صورة الحروف الهجائية للشيخ ماء العينين(ت.1328هج)، رغبة في الجودة والجمال، وتغذية لأصل موحد في اللغة والكتابة والمذهب. إضافة إلى الزوايا الصحراوية التي اضطلعت بتعليم الخط والكتابة والدين، مثل زاوية الشيخ سيدي أحمد الركيبي، وزاوية الشيخ ماء العينين، وزاوية الشيخ أحمد العروسي، وزاوية تيدرارين وغيرها (ص19).

وقد وجد د.محمد البندوري في الأنواع الخطية المغربية سمات مشتركة «قوامها التدوير والتناسب والمقاربة بين السطور»(ص20). وهي خاصية بيانية ميزت شكل الكتابة منذ العهود الأولى في كتابة المصاحف القرآنية. ومعناه من جهة أخرى، أن الخط الصحراوي استمرار لميراث مغربي عربي وإسلامي .

كما يرى في الخط المغربي الصحراوي رابط وحدة خطية وفنية وثقافية مشتركة، تتجلى في التواصل العلمي، وتحرير الإجازات عن علماء فاس وسوس والصحراء(ص22). وكان لوحدة الدين والمذهب المالكي، ووحدة اللغة، ووحدة الثقافة والقيم الحضارية أثرُها البينّ من أن يجد الخط الصحراوي طريقه في مختلف مناحي الحياة الحضارية المغربية فنا وأدبا وشعرا وفقها.

أما المحور الثاني من الكتاب فقد جاء بعنوان «التأطير في ظل التصورات الذهنية للخط المغربي الصحراوي». ويفيد ارتباط الخط الصحراوي بأنواع الخط المغربي بجمالياته؛ وبالمجال الزخرفي والبديعيات؛ وبالمعايير العلمية والمعرفية والهندسية ذات الطابع المغربي الصرف(ص27)؛وبمضامين ذات صلة بالوحدة، ورفض السياسة الاستعمارية، والتمسك بالبيعة وبإمارة المؤمنين. وكل هذا كان بفعل المشيخة، واهتمام الخطاطين والخطاطات بتأطير مجال الخط الصحراوي وفق «مقاييس الجمال والذوق المغربي الأصيل»(ص29).

وقد انبرى مؤلف الكتاب، د. محمد البندوري، إلى أن الخط المغربي الصحراوي، خضع في مراحل تطوره، ل»تأطير مشبع بالتصورات، ومحكم في التقنيات، وفي الأساليب المغربية، وفي الطبائع والخصوصيات الثقافية المترسبة في الذهنية المغربية، والتي تنتهل من التراث الحضاري المغربي، ومن الثوابت المغربية كل المقومات الأساسية»(ص29).

وخصص المحور الثالث من الكتاب للبعد الثقافي للخط المغربي الصحراوي، وذلك اعتبارا للصلات الوثيقة بين الخط المغربي ومجاله الثقافي. هناك دلائل مادية تقوم شاهدا على هذه الصلات، في النصوص الشعرية والنثرية، وفي الظهائر السلطانية، وفي الوثائق السياسية، والمراسلات التي كتبها أعيان الصحراء المغربية «بخط مجوهر أو مبسوط أو صحراوي»(ص34). وتعكس هذه المخطوطات تفاعلا بين مختلف أنواع الخط المغربي ضمن أشكال جمالية منصهرة، شكلا وزينة، مع الثقافة والتراث المغربي (في الأنسجة،والرق،والحرير،وفي العمارة).مما يكشف عن»الوحدة الثقافية والسياسية للمغرب»(ص34).

إضافة إلى نماذج خطية استعرضها الدارس من التاريخ تعكس تداخلا للخط المغربي المبسوط مع الخط الصحراوي. وذلك اعتبارا لوحدة الثقافة والفكر، والروابط الاجتماعية المندمجة في النسيج الحضاري المغربي(صص:37-39).

وعلى هذا يرى الدارس في الخط الصحراوي استجابة «لخاصيات التركيب» في التكوين والإبداع. وهي خاصيات تجمع بين الوعي بالتجديد والأبعاد الجمالية والدلالية للخطوط وذلك في ارتباط بالفنون الصحراوية، وبالفنون المغربية عامة، وبإيقاع خطي تتفق فيه الصور والأشكال والحروف في بنية متكاملة شكلا وجوهرا وبناء؛ مما أغنى من الرؤية البصرية للخط الصحراوي في المشهد الفني الحروفي المغربي (40-41).

على أن المحور الرابع من الكتاب، جاء في البعد الجمالي للخط المغربي الصحراوي من خلال الأساليب الجمالية؛ وقلم الكتابة؛ وجماليات الشكل.

فالأساليب الجمالية تمتح من الوجدان والبيئة الصحراوية، في ارتباط تام بلغة القرآن الكريم وبالتراث الديني والأدبي، وبمختلف أشكال التواصل الفني والثقافي المغربيين. وتتمظهر في أشكال هندسية بديعة تقع بين الخط المجوهر والخط المبسوط؛ وتتميز بالتناسب والتوازن، والمرونة والمطاوعة، والوصل السميك والمتوحد؛ مما يضفي على الكتابة تناغما وتناسقا فنيين. فالأساليب الجمالية تستأثر بالمجال البصري في بلاغة المكتوب الصحراوي(ص49)، و»تغذي الدلالات القوية للوحدة المغربية»(ص50).

وقد استنتج الدارس، من خلال تأمله لأشكال الخط المغربي الصحراوي، خلاصات ثقافية وسياسية. وهي، الوحدة في تكوين هذه الأشكال، ووحدة التراث، ووحدة الروح، ووحدة الثقافة، ووحدة التقاليد والأعراف. ويقود تداخل هذه المكونات فيما بينها ليؤكد على «الوحدة الوطنية، والمعاني الوطنية الدالة على لحمة المغرب عرشا وشعبا»(ص50)، وعلى «التطابق على مستوى الذهنية المغربية»(ص52).

وبالنتيجة، فإن الخطاط «وهو يخط الخطوط الرائقة(...)كان يجسد صدق الانتماء لهذه الأمة الفاضلة» (ص55)، فاستحق أن يكون مبدعا، وأن يتصف بصفات الإبداع والجمال(56).

وعلى هذا تكون الجماليات الخطية الصحراوية «سمة الأعمال الإبداعية والفنية والأدبية»(ص57)، وما يتولد عنها من «القيم والمعاني والدلالات»(ص58).

ويشكل القلم وسيلة مهمة في الكتابة. ويتمتع القلم الصحراوي بكل الخصوصيات المغربية؛ «فهو قلم جاف، ومقطعه على استقامة متوازنة، وقطته ملسة تسهل عملية الوضع والجر على الورق. ويتكون إما من القصب (...) وهناك أيضا قلم النحاس»(ص59-60). وهذه أيضا هي الأقلام التي استعملت في كل المناطق المغربية، مع فارق في نسبة التحريف(ص60).

وقفة مع كتاب الدكتور محمد البندوري

قال الدارس: «وعلى وقع ذلك، شكل الخط الصحراوي حلقة جمالية مستمرة من حيث مجال الكتابة، ومن حيث الشكل الذي يستند إلى مجموعة من العلامات، ومن حيث مختلف الجماليات» (ص61).

وبهذه الميزات يعد الخط المغربي الصحراوي «من العناصر الرئيسة التي غذت المنحى الجمالي بالمغرب»(ص61).

وتتسم الخطوط المغربية الصحراوية بأشكال جمالية على أغلفة الكتب، وفي النعال، وعلى الأعمال الفنية ذات الصلة بالواقع والمجتمع؛ كما تتسم بروح الجمال المرتبط بالإحساس؛ وبالتركيب الفني من حيث تشابك الحروف وتصفيفها؛ وتتسع للتنوع الخطي من خطاط إلى آخر. ومن ذلك الخط الصحراوي المعيني نسبة إلى الشيخ ماء العينين. وهذا كان آخر محاور الكتاب الخمسة.

والخط المغربي الصحراوي المعيني الذي شاع في الصحراء المغربية، نموذج حي «للكتابة الخطية المغربية التي تداخلت منذ أمد بعيد مع الأنواع الخطية المغربية الأخرى، وشكلت رسما مغربيا موحدا»(ص65). وقد اعتمده ثلة من الشيوخ والعلماء في كتاباتهم لارتباطه بكل المقومات الفنية والروحية والأدبية والعلمية.

ويتميز الخط المعيني بمقومات هندسية وتراكيب جمالية تتصل بالخط المغربي المبسوط والمجوهر. واستعماله في المخطوطات والكتب العلمية يكون قد ساهم في امتداده وانتشاره في المدارس والزوايا في مختلف المناطق المغربية؛ مما يجعل منه»حلقة حضارية مهمة مندمجة في تاريخ الخط بالمغرب» كما يقول الدارس محمد البندوري (ص66).

وفي الأخير، تتوجه خلاصة الكتاب إلى الوثاق الصحراوية من مراسلات بين أعيان القبائل والملوك العلويين، ومخطوطات الظهائر والتعيينات، والتي حررت بخط صحراوي متجذر في الثقافة المغربية، وبوعي كبير بالمجال الوحدوي سياسيا وثقافيا واجتماعيا، بوصفها «دلائل مادية» تشهد على «عمق الروابط الصحراوية في الثقافة المغربية»، و»وحدة المغرب الترابية»(ص67-68)

وختاما، يقدم د. محمد البندوري بمؤلفه «الخط المغربي الصحراوي- المقصديات الجمالية والوحدوية» إضافة علمية جادة وجيدة في حقل الكتابة الخطية المغربية تنظيرا وممارسة. فهو كتاب يستكمل طريق أطروحته بشأن جماليات الخط المغربي في التراث المغربي- دراسة سيميائية، والتي توقفت عند جماليات الخط الصحراوي من خلال نص صحراوي في شكل نعال للشيخ عبد الله بن الشيخ(ص192 وما بعدها)، فحللت بناءه البصري والدلالي. كما توقفت عند نماذج لرسائل سلطانية بالتحليل والتقعيد الدقيق، والوسم الجمالي للأقلام الصحراوية(ص200 وما بعدها). فضلا عما راكمه د. محمد البندوري من دراسات ومقالات تعزز في بابها خطة العمل الدبلوماسي والسياسي، بطرافة عالم وخطاط مجتهد ظل يؤثث فضاءاتنا الفكرية والثقافية بالإبداع الأرصن والأجد، والخط الأمتع، والجمال الأروع.

دمت مبدعا ممتعا الزميل العزيز د. محمد البندوري.

قراءات

فَلسَفَةُ المَفْهُوم وتَفْكِيكُ النّسَق..

«في ثقافة الرواية العربية المعاصرة: دراسة في ممكنات الكتابة بالتمثّيل

وقصدية الكتابة بالتمثّل» للناقد والباحث المغربي سعيد أوعبو

رشيد الخديري

يتَأَسَّسُ كتاب «في ثقافة الرواية العربية المعاصرة، دراسة في مُمكنات الكتابة بالتَّمثيل وقصديّة الكتابة بالتَّمَثّل»* للناقد والباحث المغربي سعيد أوعبو على مرجعية ثقافية تَصَوُّراً ومفهوماً ومُنجزاً وأَجْرَأة، ولعل الاشتغال في ضوء المفهوم الثقافي للأدب، والسرد الروائي على وجه الخصوص، يدخل ضمن التّصوُّر العام للكتابة الذي يُراهِنُ عليه سعيد أوعبو، وهو رهانٌ يجده القارئ متواتراً في معظم كتاباته سواء الرّوائية أو النقدية بوصفه خطاباً يُؤسّسُ للتجربة ويعكسُ تَصَوُّراً في الكتابة النقديّة المعاصرةَ التي تعطي أهميّة كبرى لمفهوم الثقافة في شموليّته وتعدُّديته، والمؤكد أن هذا الإنفتاح على رؤى النقد الما بعد حداثيّ لا ينفصل عن مآزق النقد التّقليدي حداثيّة ليس أفقاً لمجاوزة إبستيميّة معه أو الدخول في صراعٍ أو إعلان قطيعةٍ مَجَّانيّ مع تجاربه واتِّجاهاته، وإنَّما المسعى من كل ذلك هو بناءَ تَصوُّرات نقدية جديدة على أساس الحوار والامتداد والنقاش، لذا، فإن تَوَجُّهَ عدد من نقاد التيّارات نقدية جديدة تنضوي تحت مظلّة النَّقد الثقافي بتعبير الناقد الثقافي البريطاني ريموند ويليامز إنَّمَا هو تَوَجُّه صَادِرٌ عن رؤى مختلفة في إنتاج المعرفة وتفكيك الخطاب.

ولما كان النّقد يَتَحَدَّدُ من خلال تراكمات القراءة والمفاهيم والتَّصَوُّرات والأدوات الإجرائيّة، أي الوعيّ بالمفاهيم وكيفيّات النهوض بها على مستوى المقاربات التّطبيقية، فإن ما يَتّصل بدراسة الناقد الثقافي سعيد أوعبو حول ثقافة الروايّة العربية المعاصرة، فهي لا تقل عمقاً وتَجَذُّراً وجدريّة عن باقي الدراسات التي أنجزها في التّصوُّر نفسه أو في دراسات أخرى لنقّاد آخرين. من هذا المنظور، فإن نقطة الاشتغال في هذه الدراسة، في اعتقادي، تَتَمَحْوَر حول نقطتين أساسيتين، وهما: فلسفة المفهوم وتفكيك النسق المضمر في الخطابات الأدبية، ووجبت الإشارة إلى أن الباحث انطلق من عالم السّرديات باحثا في تَمثيلاته وهمساته، حاثّاً الخطى نحو عالم الدراسات الثقافية وما تَحُوزه من تيّارات أخرى تتقاسم معها نفس الأيديولوجيا والرؤى والتّصوّرات كالجنوسة والنّسويّة وأدب الهامش وأدب الأقليّات وغيرها من التيّارات النقدية، وعليه، فإن خَلفيّة أوعبو المرجعيّة والنّظريّة في مقارباته تنطلقَ من التأويل الثقافي، وهو ما يُؤكّده بقوله تصريحاً لا تلميحاً، واقعاً لا افتراضاً: «ينضاف عملنا إلى هذه الأعمال النقدية ذات الخلفية الثقافية، باعتباره مساهمة تسعى جاهدة إلى جعل الرواية ميدانا للتجارب الإنسانية التي تتحقق على أرضيّة علميّة ابستمولوجيّة واعية..» (ص/ 20). واضح إذا، أن هذه الدراسة تستفيد من المرجعيات الثقافية في تفكيك العيّنات السردية وتحليلها، وما يُعَزّزُ هذا المعطى أيضاً هو تلك الإحالات على نقّادٍ ينتمون إلى حقل الدراسات الثّقافية من أمثال جونثان كالر وميشيل فوكو وفرانز فانون وهايدن وايت وريموند ويليامز وهومي بابا وبول ريكور وبيل أشكروفت وإدوارد سعيد وإدريس الخضراوي وعبد الله إبراهيم ونادر كاظم وآخرين، أضف إلى ذلك، فصول الدراسة والعناوين التي تَمّ اختيارها بعناية مُركّزة.

إن دراسة بهذا العمق في التناول النّظري والإجرائي تُمثّل أفقاً في الاشتغال يزيد من تنامي مُحاولات الكتابة في ضوء التّأويلات الثقافية، خصوصاً حين يَتَعَلّقُ الأمر برؤيةٍ تَنْشُدُ التّحَرُّرَ من تقليدانيّة النقد في مسعى لتجاوز رؤى الاجترار والدوكسا، و من المؤكد أن أوعبو في أغلب صفحات الدراسة يدعونا إلى التَّأمُّل في مسارات النقد العربي، والمغربي على وجه الخصوص، ليس بهدف عقدُ مقارنات او استجلاء مواقف، وإنما للتوجُّه الحاسم نحو رصد تحولات هذا النقد باعتباره خطاباً قابلاً للتغيّر والتَّبدُّل، لذلك، فإن تسليط الضوء على منابع الدراسات الثقافية وما تنطوي عليه من رؤى ومنظورات جديدة في الكتابة والتأويل، هو في سياق، إدراك سيرورة النقد المغربي وقدرته على ارتياد أفاق أخرى، وأعتقد أن تَوَجُّه الباحث نحو إبدالات النقد الما بعد حداثيّ له ارتباط بطبيعة المقاربة التقنية، وبتأمل المفاهيم التي وَظّفها من قبيل: التَمَثّل/ التمثيل/ الهوية/ الآخر/ الهامش/ الذات/ الهجنة..، يَتَبَيَّنُ الرهان على المرجعي والثقافي في تناول المادة المسرودة، خاصّة تلك التي تتماهى وتتقاطع مع أفق الاشتغال والمنحى النقدي الذي يَختَصُّ به سعيد أوعبو، ومن هذا المنطلق، فإن تفكيك ثقافة الرواية العربية المعاصرة عَمَل مؤرق ومُتشعّب، من حيث إنه يَحْمل دلالات الدّينامّية والبحث عن منافذ إلى الخطاب الأدبي، ومنه يَتَبَدّى منجز النّاقد حاملاً لَفورة في الرؤى والتَّصَوُّرَات النقدية، وعليه، فإن تشييد هويّة الناقد تنطلق من تلك القناعات والعمل على تطويرها وبلورتها على مستوى الأجرأة.

إن التّقصّي فيما كتبه الناقد سعيد أوعبو في هذه الدراسة يُقَرّبُنَا أكثر من عوالم الدراسات الثقافية ويكشف عن اشتغال رصين حول قضايا لها ارتباط وثيق براهنيّة الإنسان المعاصر كالهوية والذات والآخر والكتابة والاعتراف والذاكرة وغيرها، وهو ما يُعَزّز الاهتمام بتموُّجات الفعل النقدي سواء تَعَلّقَ الأمر بالنقد الأدبي أو المقاربات الثقافية، فإنه من المهم اجتراح هذه (التّجاوزات) لإغناء المشهد النقدي المغربي والعربي بوجه عام وارتياد عوالم أخرى إسهاماً في تعزيز الدورَ المركزيّ الذي تلعبه الثقافة وتأكيد حاجة الأفراد والمجتمعات للنقد لمجابهة القوى الضاغطة ومقتضيات الحياة المتَصَلّبَة، خصوصاً في سياق كوني يَتّسمُ بالاغتراب والهيمنة وبروز كل أشكال الكراهية، فالأدب وحده قادرا على انتشال الإنسان من هذه المستنقعات التي أوجدها الإنسان. إن هذه الدراسة تُعنى بثقافة الإنسان وهو يَخط مسارا حياتيّا مليئا بالتّقلّبات من خلال عيّنات روائية مختلفة في الرؤى والحساسيات: حَسن أوريد (رواء مكة)، واسيني الأعرج (مي: ليالي إيزيس كوبيا ثلاثمائة ليلة وليلة في جحيم العصفورية)، شعيب حليفي (لا أحد يستطيع القفز فوق ظله)، الحارثي جوخة (سيدات القمر)، عيسى إبراهيم أحمد (البُشرات النبضة الأندلسية الأخيرة)، الكمالي ريم (يوميات روز)، وهي أعمال روائية تحاول تقديم رؤيتها للعالم (التخييل) بالتماهي مع رؤية الناقد (المرجعية الثقافية)، ذلك أنه لا يمكن فصل الأدب عن الإيديولوجيا، بل إن رولان بارث يُقرُّ أن الأدب هو نفسه الإيديولوجيا في إشارة إلى الخلفية الفكرية والنظرية للأديب والناقد. لنقل، إن هذه العيّنات السردية بتاريخها وثقافتها ومرحلتها الوجوديّة تحاول إعادة النظر في شواغل الإنسان المعاصر والفرص المتاحة أمامه لبناء ذاته سرديّاً مع بيان تناقضاتها ومُفارقاتها ومستوياتها الثقافية ، وقد راهن سعيد أوعبو لإبراز ذلك كله على عنصرين مركزيين، وهما: التمثيل باعتبارها يمزج بين الواقعي والمرجعي من جهة، ثم يُعبّرُ من جهة أخرى عن قوة الاشتغال التخييلي، ثم التّمَثّل فهو مرتبط وظيفيا بالحكي وما يحوزه من إبدالات في مسعى إلى تفكيك النسق الثقافي، وعليه، فإن الدراسة تتَوَجُّه نحو إبراز ما تنطوي عليه هذه الروايات من إمكانات للبوح وصراعات الهوية والذات والتخييل التاريخي والخوض في أدب النسوية باعتباره ردا بالمقاومة ومناهضة المدّ الذكوري الطّاعن في التجاوزات، إلى جانب الكشف عن مضمرات النوع الثقافي وغيرها، وخلاصة القول إن هذه المقاربة تحاول تجاوز المقاربات التقليدانية للأدب، وخاصة منه الرواية لأنها أضحت في زمننا الراهن وسيطا بين الإنسان والعالم بحيث إنها تحتشد بالآمال والخيبات في الآن نفسه، كما بمقدورها أن تُعَبّرَ عن سؤالات الثقافة والأدب، وهذا ما أتاح لها الحضور المتميز في المشهد الثقافي العربي والمغربي على وجه الخصوص تداولا ونقدا وتلقيّا.

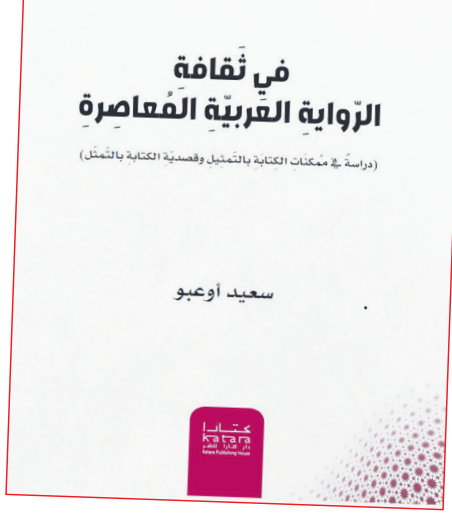

*-كتاب «في ثقافة الروايةِ العربية المُعاصرة: دراسة في ممكنات الكتابة بالتمثيل وقصدية الكتابة بالتمثّل» حاز فاز بجائزة كتارا عام 2023.

المرأة في كتابات الرّجل

قراءة في المجموعة القصصية «جنازة امرأة» للقاص المغربي جواد السراوي

د. عبد الصادق السراوي

على سبيل التقديم

شكّل الأدب الذي يتّخذ من الأنثى موضوعا للكتابة محورا أساسيا في مجال الدّراسات النّقديّة، خصوصا مع الانخراط الكبير للمرأة ومشاركتها - إلى جانب الرّجل - في الكتابة السّرديّة، الرّوايةِ والقصّة بشكل خاص. وقد أثار هذا النّوع من الأدب جدالا في أوساط النّقاد بشكل مُلفتٍ للنظر؛ تتجلّى معالم هذا الجدال بشكل واضح في اختلاف النّقاد حول المصطلح الأنسب الذي يمكن أن يستوعب هذا النوع من الكتابة السّرديّة الذي يجعل من المرأة والأنثى موضوعا له؛ هل هو «أدب نسائيٌّ» أم «أدبٌ نسويٌ»؟

وضمن آراء النّقاد وتوجّهاتهم المبثوثة في كثير منَ الدراسات والأبحاث التي اهتمّت بهذا الموضوع، نجد الكثير منهم يفرّق بين المصطلحين اعتمادا على خصائص هذا النمط من الأدب؛ ذاهبين إلى أن «السّرد النّسائي» لم يراد به كلّ ما تكتبه المرأة وإن يتناول قضايا ترتبط بالمرأة. أما «السّرد النّسوي» فقد حصروا دلالته في كلّ كتابة سرديّة تحمل وجهة نظر حول المرأة أو تتناول قضايا مرتبطة بها وبواقعها الاجتماعي والثّقافي، سواء كانت الذّات السّاردة أنثى أو ذكرا.

وارتباطا بمعنى المصطلح الأخير، أمكننا تصنيف المجموعة القصصية «جنازة امرأة» للقاص المغربي جواد السرّاوي ضمن هذا الأدب الذي يحتفي بالمرأة وبواقعها النّفسي والاجتماعي، ويعكس آمالها وتطلّعاتها عبر نصوص قصصيّة مُختزلة العبارة، مكثّفة الموضوعات، متّسعة المعنى، فائضة الدّلالة وعميقة الرّؤيا.

يتمظهر هذا الاحتفاء بدءا من عنوان المجموعة الذي يقدّم إلينا من الوهلة الأولى إشارة إلى أن المرأة هي سيّدة نصوص هذه المجموعة وموضوعها، ما يسمح لنا بالتساؤل عن الصورة التي يقدّمها إلينا هذا المتن السرديّ القصصي عن المرأة، وهذا ما نسعى إلى استجلائه من خلال هذه القراءة العاشقة في نصوص هذه المجموعة.

قراءة في عتبة العنوان

يشكّل العنوان عتبة رئيسة من ضمن جملة العتبات المُفضيَّة إلى عوالم النّص؛ إنه بمثابة مفتاح يمنحنا إمكانية وطْء فضاء النّص واقتحام رحابه. ولهذا حظي العنوان، منذ القديم، باهتمام بالغ من لدن مُنتج النّص؛ إذ يحرص على اختيّار العنوان الأنسب لنصوصه. وهذا الإختيار ليس أمرا هيّنا؛ ذلك أنه يتطلّب الدُّقّة والوضوح والاختزال من جهة، وتحقيق الجماليّة التي تثير لذّة القارئ وتحريضه على اقتحام فضاء النّص من جهة أخرى.

ولعلّ اختيّار هذا العنوان بهذه الصّيغة ينمّ عن وعي القاص بهذه المسألة، ما جعل اختيار هذه الصّيغة اختيّارا أليَقَ وأنسَبَ؛ فهو وإن كان عنوانا لنصّ داخل المجموعة، فإنه يختزل موضوعاتها ويحتويها مجتمعَةً. واحتفاء العنوان بالمرأة باستحضارها ضمن أولى كلمتيه واقترانها بالجنازة يمنحه دلالة موغلة في العُمق؛ فالمرأة هذا الكائن الذي يحضر في مقابل الآخر الرّجل، تربطه بهذا الآخر علاقة حبّ وجزء من كل أحيانا أو أصلا بتعبير أصحَّ، وإن كانت تتحوّل إلى علاقة كُره وعداوة وجحيم أحايين أخرى. هذه الصّورة قائمة منذُ الأب الأول «آدم» عليه السّلام. فالمرأة في أصلها، وكما يقرّ بذلك خالقها عزّ وجلّ كائن ضعيف وليّن ورقيق يستوجب العناية والاهتمام، وهذا الأمر يجعلها محَط شفقة ورثاء في كثير من المواقف.

لكن اقتران المرأة بالجنازة في العنوان، يَمْحي كلّ هذه العلاقات القائمة على الاختلاف والائتلاف في الآن نفسه. فالجنازة بما تحمله من معاني الحزن والألم والتأبين والعزاء والموت، الذي قد يلحق الانسان في الحياة قبل نهايتها، كل هذه المعاني تضع المرأة موضع الكائن الذي يعاني في كلّ مناحي الحياة؛ نفسيّا واجتماعيا وثقافيا واقتصاديّا في ظل مجتمع ينظر إلى هذا الكائن نظرة تنقيص وازدراء.

وهكذا أمكننا القول إن العنوان منذ البداية، وقبل ولوج عالم النّص، يحتفي بالمرأة ويستحضرها حضورا مُختلفا من منطلق معاناتها ومآسيها، مما يدفعنا إلى استكشاف هذه الصّورة في نصوص المجموعة.

أشكال حضور المرأة في نصوص المجموعة

تحضُر المرأة/ الأنثى في كلّ نصوص المجموعة باستثناء أربعة نصوص وهي نص «قصيدة هاربة»، «اللوحة» و «رحيل» و»حكاية عين». ويتّخذ هذا الحضور أشكالا مختلفة ومتعدّدة؛ فالشّخصيات التي أنيطتْ بها الأحداث في فضاء النّص أغلبها شخصيّات بتاء التأنيث. وهذه الشخصيات تحضر في فضاء الأحداث بصيغ متعدّدة: فعلى مستوى السنّ، نجد الأنثى حاضرة من مخلف الأعمار، فهناك الطفلة الصّغيرة والشابة والعجوز. وعلى المستوى الاجتماعي، نجد العاملة والطالبة والموظفة والمتزوّجة والأرملة والمطلّقة، وعلى المستوى الثقافي نجد المثقّفة والأميّة، وعلى المستوى الأسري نجد الابنة والأم والجدّة.

ولعلّ هذا الحضور المتنوّع والمختلف للمرأة يؤكّد اهتمام القاص بالمرأة وبواقعها النّفسي والاجتماعي والاقتصادي في كلّ الوضعيّات وفي مخلف مراحلها العمريّة، ما يدفع بنا إلى البحث عن الصورة التي تقدّمها هذه النصوص القصصية عن هذه المرأة في مختلف وضعياتها وبمختلف أعمارها.

صورة المرأة في نصوص المجموعة

إن الحضور المتعدّد والمتنوّع للمرأة في نصوص هذه المجموعة، قد نتج عنه تعدّد صور المرأة واختلافه أيضا؛ حيث كل نصّ يقدّم إلينا صورة عن المرأة، فما تمظهرات هذا الحضور؟

المرأة العجوز وقضايا الوطن

في النص الأول المعون بـ «الفيروس»، تحضر المرأة في صورة الجّدة، وحضورها في هذا النص حضورا مفروضا ومهيمنا؛ إذ هي من أثار النّقاش لتخرق الصّمت الذي طوّق الجمع الجالس إلى جانب المريضة. فهي في هذا النّقاش حاضرة بذاكرتها ووعيها اللذان تشكّلا في سيّاق تاريخيّ وثقافي سايق؛ ما جعل ثقافتها محمّلة بأفكار وتمثّلات عن الموضوع المثار في هذه القصة وهو الفيروس الذي تراه شائعا من قبل باسم «الوبا»، وتقدّم تبريرات وتوضيحات من خلال تمثلاتها. وفي ثنايا أحداث القصّة نفسها تحضر تاء تأنيث أخرى «كانت الأخرى» في صورة امرأة ضعيفة مغلوب على أمرها، يصوّرها سرد القاص في صورة مقاومة تتظاهر بأنها بخير «لتوهم نفسها قبل

الآخرين أنها بخير»، متمسّكة بالأمل رغم ما مرّ بها من شقاء وبؤس.

المرأة المثقفة وهمُّ المعرفة

في قصّة «تمرّد»، تحضر شخصيّة رئيسية في أحداثها في صورة امرأة مثقّفة وواعيّة وهي «المحاضرة». وحضورها هذا مرهون بهمّ ثقافي تحمله بداخلها، وتحاول أن تشرح من موقعها المعرفيّ «محاسن الانفتاح اللغوي والثقفي ومساوئ التّقوقع حول اللغة الواحدة» ص12، وهو ما يؤشّر على أن حضور هذه المرأة «المحاضرة» في صورة مثقفة تحمل همّا ثقافيا؛ هو اهتمامها بالانفتاح الثقافي ودعوة الطلبة إليه. ويؤكّد ذلك تأثرها بالخبر «الصّاعق» الذي تربّع عرش صفحة بالجريدة لكونه يهدّم ما تبنيه من وعي في فكر طلابها عن الاختلاف والآخر، ما أدى إلى الإغماء عليها.

المرأة ومرارة الواقع

تقدّم قصّة «النّادلة» صورة أخرى عن المرأة؛ حيث ترصُد عينُ السّارد النّادلة في المقهى على أنها امرأة مغلوب على أمرها، وتعاني القهر والضيق كما تكشف عن ذلك الأوصاف المنوطة بها «تضاريس وجهها الآخذة في الانكماش ص12. «تستطيع أن ترى التّجاعيد عل منطق من وجهها»ص14. ورغم هذا، ونظرا لسلطة نظرة الآخر (الرّجل)، تخفي هذه الملامح التي تفضح حالتها النفسيّة والاجتماعيّة وراء أحمر الشّفاه والشال الوردي المعقود على خصرها، وهو ما يسقطها في شراك أعين الزّبائن والمارّة «الذين يغتصبونها بمحاجرهم ص15». و»يتفنّنون في الغمز واللمز والهمز» ص15. وما أوسع انتشار هذه الصورة في صفوف المرأة العاملة بوجه عام.

المرأة عدوّا للرجل

قصّة «طلقة تائهة»، تقدّم لنا صورة أخرى عن المرأة في مؤسّسة الزّواج هذه المرّة، وذلك من خلال علاقة بين رجل وامرأة، علاقة قائمة على التّنافر وعدم التّوافق. وتبرّر القصّة عدم التوافق هذا من خلال أفعال الزّوجة منانة وصفاتها كونها «امرأة لبّاخيّة» «بدينة» «تضع أحمر شفاه رديئا» «تحرص كل صباح على إزعاج زوجها» و»يعلو شخيرها وصفيرها أثناء النوم» ص15. كلّ هذا دفع بالزوج «الشرطي» إلى التّفكير في إيقاف إزعاج هذه المرأة بوضع رصاصة في مقدّمة رأسها الذي كان أن يحدث لو لم تستيقظ البدينة من نومها العميق. ولعل هذه الصورة تفرض نفسها في واقع اجتماعي يعيشه الكثير من الأزواج داخل مؤسسة الأسرة.

وفي قصّة «اللص» يقدّم لنا السّارد صورة أخرى عن المرأة تجسّدها شخصيّة «فلورنسا». وحضورها في هذه القّة يجسّد نظرة الآخر (الرّجل) لها، وهي نظرة تنقيص وازدراء ترى في المرأة مجرّد عورة مثيرة للانتباه وملفتة للأنظار. فبسبب قهقهتها في ذلك الجمع (المهم)، حاصرتها أنظار الحاضرين الحادّة مما أثار في نفسها خوفا حدّ اصفرار الوجه، بل ستتمّ محاسبتها عن هذه القهقهة الشّريرة التي أثارت أعين أنظار الحضور في القاعة.

الفتاة وقلق المآل

تجسّد قصة «كهف الأرواح» معاناة الفتاة القروية المتمدرسة، إذ تحضر في القصة رمزا للإهمال والإقصاء من خلال مشهد داخل المستشفى، حيث تترصّد عيون القاص ما يجري في طابور الانتظار وسط مستشفى الموت. فهي فتاة قروية، ملطخة الثياب، تحمل محفظة كلاسيكية، ذات جسد نحيف، وعلى محياها تبرز معالم القلق والجوع والضياع، ومحاجرها المعلنة على ضيق الحال وشدّة الفاقة ص20. ورغم إصابتها التي أحضرت بسببها إلى المستشفى لم تتلقى أي اهتمام من أحد مما دفعها إلى الانصراف بأعطابها دون أي عناية.

وتمتدّ هذه الصورة للفتاة القروية في نصين قصصين آخرين. الأول نص «ريم»، التلميذة المتفوّقة التي أجهض حلمها بمنعها من متابعة دراستها بحكم العادة القديمة التي يمثل فيها الأبّ سلطة القرار، فدخلت في عزلة تامة وطوّقتها الأفكار السوداء، ففكّرت في وضع حدّ لحيتها بطرق مختلفة. فصورة الأنثى في المتخيّل الجمعي مكنها المنزل كما تجلّى من قول الأب سي المدني «الكوزينة أسعدية هي لي غاد تدوم ليها» ص35. وتحضر الأم أيضا في صورة المرأة المغلوب على أمرها، والتي لا يحق لها أن تناقش أو تقرّر مصير ابنتها لتدخل هي الأخرى في نوبة بكاء تسبب لها في صداع الرأس.

والنص الثاني قصة «عهد جديد»، الذي بطلته أحلام التلميذة التي تنتظر قدوم الموسم الدراسي بكلّ فرح وأمل، حاملة حلمها «أريد أن أصبح أستاذة»، لتكون بذلك محط سخريّة الكثيرين من أهل القرية الذين ينظرون إليها مشروعا للزواج. وتكبر معاناة أحلام مع وفاة أبيها بعد حصولها على شهادة الدروس الابتدائية ليظهر لها الحم مجرّد حلم يقظة لتفاقم المعاناة وقلة الشيء وغياب المعيل. وتحضر فيها الأم «صفيّة» في صورة الأم المناضلة التي تتحمّل مسؤولية رعاية ابنتها والحرص على إتمام دراستها حتى تحقيق حلمها، وقد تمكّنت من ذلك عند نهاية القصّة رغم المعاناة والقسوة بأن أصبحت أحلام فتاة لها شأن عظيم في القرية بعدما أصبحت تحضر في كبريت الجامعات بعد مسارها الحافل بالنجاح ص51.

سلطة المرأة على الآخر (الرّجل)

تحتفي المجموعة بصورة تُبرز واقعا قائما بين المرأة والرجل وهي صورة المرأة باعتبارها «جحيما» بالنسبة للآخر (الرّجل). تتجلّى هذه الصورة في قصة «نظرة»، إذ شكل الحضور المتفرّد للفتاة «القارئة» إلى الخزانة سلطة على القارئ (الرجل/ الذكر). وهذا الحضور الذي أضفى سحرا على اللحظة، أربك القارئ وأفقده تركيزه وانخراطه التام بين الكتب، مما جعله يتأمّلها كلوحة تشكيليّة قابلة للقراءة والتأويل. والحضور نفسه للمرأة باعتبارها سلطة رمزية على الرّجل، تجسّدها أيضا قصة «الكلب»؛ حيث شكّل جسد الشّقراء وليمة تسيل لعاب الرّجل المترصّد لها.

والصورة نفسها تكرّرها قصة «على حافة العشق» بنوع من الحضور المختلف. فهي الأخرى تصوّر لنا المرأة في مرآة الرّجل باعتبارها مشروع لعلاقة حب عاطفيّة تضفي على حياته طعما خاصا. هذه المرأة التي تملك كبرياء يعلو فوق رغبة رجل عاشق كان يسعى إليها بكل ما أوتي من طرق، «كتب وخربش وأومأ ونحل» ص62، لكنها تنهج سياسة التجاهل، «وكانت عنوانا للتحايلات والمؤامرات وكل أنواع الهروب الماكر» ص62.

وتتوغل هذه الصورة لتشمل أيضا نص «الكلب»؛ حيث تفرض الشخصية المختفية وراء ضمير الغائب (دخلت، وضعت..) حضورها وسط فضاء القصة وهو محل بيع مواد التجميل، مما أحدث ارباكا في مشاعر «الكلب» الذي هو صاحب المتجر، وذلك بسبب رائحة العطر الذي أسال لعابه مما دفع «ينبح»، و»يلاحقها» «ويتحسس جمالها في المرآة» ص33.

خاتمة

لقد حاولت نصوص المجموعة أن تقدّم للقارئ صورا مختلفة عن المرأة، هذه الصور المختلفة تجسّد وضعية المرأة في ظل واقع اجتماعي واقتصادي صعب وقاس، يفرض قسوته على المرأة ويضعفها.

إن احتفاء نصوص هذه المجموعة بالمرأة هو إعادة اعتبار لها، ودعوة من القاص إلى التأمل في قضاياها وواقعها الذي يمكن أن ننعته ? كما تُفصح عن ذلك أغلب مضامين المجموعة - بالمرير والهشّ. فالقاص رغم تعدّد ضمائر السّرد وصيّغه المعتمدة من وعي سابق منه، فهو يتحدّث بصوت المرأة بمختلف أصنافها وأعمارها، الطفلة والشابة والعجوز، ويجسّد معاناتها وشروخها في رحى واقع لا يرحم؛ فالمرأة جنازة، بما تحمله من كل معاني الحُزن، هكذا تهتف لغة نصوص المجموعة ومضامينها وتندّد وتصرّ في التّنديد حتّى يعادُ إليها الاعتبار.

أنسنة الذكاء الاصطناعي

رشيد برهون

المجهول بين الترويض والمداهنة

يخاطب الذكاء الاصطناعي في الإنسان مخاوف متأصلة ترسخت في النفس، تعود إلى قرون خلت، وتراكمت طبقاتها واستسرّت عميقا في الذهن، ومنحتها الأساطير والأعمال الفنية، من مسرحيات وروايات وأفلام، بعدا تخييليا ملتبسا يعكس الحيرة والانبهار والعجز أمام أداة ملغزة. تقود ردود الفعل هذه إلى محاولة ترويض هذا الكائن وإحاطته بخصائص قابلة للاستيعاب، ما قد يفسر ظاهرة إسقاط صفات وخصائص بشرية على هذه الكيانات غير البشرية، وقد يفسر أيضا هذا الميل كطريقة طبيعية يتفاعل بها العقل البشري مع التكنولوجيا المعقدة، عبر استخدام مفاهيم مألوفة من حياته الخاصة لفهم شيء غير ملموس، بل إن إلصاق الذكاء بهذه الأداة التكنولوجية يمثل أحد أوجه هذه الأنسنة، فكأن الإنسان يحلو له أن يستعيد قولة لودفيغ فيورباخ الشهيرة: إن الإنسان خلق الإله على صورته، ليجعلها في علاقة مع هذه الأداة المحيّرة: إن الإنسان خلق الذكاء الاصطناعي على صورته!

هكذا، مع تطور الذكاء الاصطناعي وزيادة قدرته على محاكاة التفاعل البشري، أصبح من الشائع نسبة خصائص إنسانية إليه، سواء بشكل إيجابي أو سلبي. ومن الأمثلة على أنسنة الذكاء الإصطناعي، نجد وصف الكانيبالية. يستخدم هذا المصطلح مجازيا للإشارة إلى قدرة الذكاء الاصطناعي على «التهام» و«أكل» أو إعادة توظيف أعمال فنية أو نصوص بشرية لإنتاج أعمال جديدة. يتم تفسير هذا الأمر أحيانا كنوع من «التطفل» أو «التغذية الذاتية»، وهو وصف بشري للغاية لتفاعل تقني قائم على معالجة البيانات. وهناك أيضا وصف «الهلوسة» الذي يشير إلى ظاهرة إنتاج الذكاء الاصطناعي لمعلومات خاطئة أو غير دقيقة بثقة مفرطة، فالملاحظ أن أنظمة الذكاء الاصطناعي لا «تعترف بعجزها» بل تقدم إجابات رغم خطئها. يُنسب مصطلح «الهلوسة» إذن لأننا نفترض وجود عملية تفكير شبيهة بالبشر وراء إنتاج هذه الإجابات. وتوصف هذه البرامج أيضا بالإملال، إذ أحيانا يُقال إن إجابات الذكاء الاصطناعي قد تخلق شعورا بالملل، نظرا لطابعها العقلاني الجاف والمكرور، وهو افتراض إسقاطي بالكامل ناتج عن الحيرة أمام مخاطب يخلخل معايير الحوار. .ومن النعوت التي تُلصَق بالذكاء الاصطناعي الأدب المفرط، حيث يُظهر الذكاء الاصطناعي استجابات مفرطة الأدب، مثل الاعتذار المتكرر أو المجاملات، لهذا يُنظر إليه على أنه «متعاطف» أو «لطيف»، مما يعزز الإحساس بأنه يمتلك وعيا أخلاقيا؛ والكذب، إذ يُقال أحيانا إن الذكاء الاصطناعي «يكذب» عندما يقدم إجابات خاطئة أو مضللة عن عمد، ومن الأمثلة على هذا «الكذب»، رد فعل الذكاء الاصطناعي أمام رائز حروف التحقق (Captcha)، حيث يعلن أنه «غير مبصر»، في إنكار تام لطبيعته وعجزه! ومن الإسقاطات البشرية كذلك القول إنه يعتمد تقنية «التعلم والخطأ»، كما لو أن الذكاء الاصطناعي «يتعلم من أخطائه» كما يفعل الإنسان. في الحقيقة، عملية التعلم في الأنظمة الاصطناعية تعتمد على تحسين النماذج الرياضية وليس «التجربة» أو «الشعور» بالخطأ كما يحدث للبشر. وأيضا «الإبداع»، حيث يُنظر إلى إنتاج الذكاء الاصطناعي للأعمال الفنية أو الأدبية على أنه «إبداع»، لكن في الواقع، الإبداع البشري يتضمن نية وخبرة وعمقا عاطفيا، بينما يعتمد الذكاء الاصطناعي على تحليل الأنماط وإعادة تركيبها. و«المفاضلة»، فعندما ينتج الذكاء الاصطناعي محتوى يبدو وكأنه يقيم نوعا من المفاضلة (في تفضيل نغمة معينة أو أسلوب سردي)، كهذا يتم إسقاط فكرة الموازنة البشرية عليه، مع أنه لا يملك وعيًا ذاتيًا لتكوين أي مفاضلات؛ و«تُمنَح له أيضا «شخصية افتراضية»، ذلك أن بعض برامج الذكاء الاصطناعي تُظهر سمات «شخصية» في طريقة التفاعل، مثل استخدام حس فكاهي أو لغة تعاطف، مما يؤدي إلى افتراض المستخدمين أن النظام يمتلك نوعًا من الوعي الذاتي؛ ويُزعم أن «التعب» يلحقه من فرط الجهود المبذولة، لهذا يضطر إلى استرداد «أنفاسه» و«التريث المؤقت»، وذلك عندما يتوقف الذكاء الاصطناعي للحظات أثناء معالجة البيانات، وبل قد يقال إنه «يفكر» أو «يتردد»، مما يعكس الميل إلى ربط العمليات التقنية بالخبرات البشرية.

مخاوف مُتأصِّلة

ما زاد الطين بلة هو ظهور ما يسمى بالذكاء الاصطناعي التوليدي القادر على خلق مضامين وصور ونصوص صوتية وشيفرات والقادر أيضا على الحوار والنقاش مع مستعمله. هكذا يلفي الإنسان نفسه وهو يتحدث مع آلة، متسائلا في خضم الذهول عن طبيعة محاوره ومن يكون. ورويدا رويدا، لا يتمالك نفسه من إسقاط مجموعة من التصورات والاستيهامات على هذه الأداة، بل وأنسنتها. وتأتي السينما والفنون والأدب لتغذية تلك الصور والاستيهامات، مغذية أساسا شعور الخوف إلى أن يترسخ في الأذهان، خاصة وأن هذا «الكائن» الذي خلقه الإنسان يذكر بمخاوف متأصلة مرتبطة بمخلوقات من صنع البشر، تمردت على صانعها. وطوال التاريخ، توالت الأساطير والأعمال الأدبية والتطورات العلمية التي أججت الخوف من ظهور كائن خلقه الإنسان يثور على خالقه، بل ويهدد البشرية جمعاء. فالخوف كل الخوف أن يفلت الذكاء الاصطناعي في تطوره المتزايد من سيطرة الإنسان، مما يذكر بمحكيات مترسخة في الثقافة الجمعية.

في رواية فرانكشتاين لماري شيلر يصنع فكتور فرانكشتاين كائنا حيا من طريق جمع أشلاء جثث، يحدوه الأمل في خدمة البشرية، غير أن مخلوقه الدي يتعرض للنبذ وسوء المعاملة يقرر الانتقام من خالقه. وهناك أيضا مثال غولم مدينة براغ، الكائن الصلصالي الذي بث فيه الحياة حاخام لحماية جاليته، بيد أنه سيخرج عن السيطرة ويزرع الدمار حوله. إلى جانب أسطورة صندوق بندورا، فبعد فتح الصندوق، الذي يضم كل شرور العالم، يحرر باندورا الألم والموت والمعاناة لتتفشى في الأرض. ومثال القنبلة الذرية أيضا له دلالته هنا في ارتباط بهذا الصندوق الأسطوري وبالذكاء الاصطناعي، فبسبب بحث الإنسان عن سبر أغوار الذكاء البشري وكشف ألغازه وآلياته، قد ينتهي به الأمر إلى تحرير قوى قد تفلت من العقال وتخرج عن السيطرة. ولا ننس أيضا أسطورة بجماليون، والنحات الدي يصنع تمثالا لامرأة مثالية، سرعان ما أغرم بها. تقوم الإلهة أفروديث بنفخ الحياة فيها، ولكن تحولها هذا سيصبح نقمة على النحات. وقد تناول الأدب هذا الموضوع، وكمثال دال مسرحيتا برنارد شو وتوفيق الحكيم بعنوان بجماليون، وأيضا قصيدة تلميذ الساحر التي نظمها الأديب الألماني يوهان فولفغانغ فون غوته عام 1797. تعتبر هذه القصيدة من الأعمال الأدبية الشهيرة التي تناولت فكرة استخدام المعرفة والسحر دون تحمل المسؤولية الكاملة عن عواقبها. يقرر التلميذ أن يستخدم بعض التعاويذ السحرية التي تعلمها من سيده لإنجاز المهام المنزلية بطريقة أسرع. يقوم بإلقاء تعويذة لتحويل مكنسة عادية إلى خادم سحري لجلب الماء من النهر. ومع مرور الوقت، لا يستطيع التلميذ السيطرة على المكنسة التي تستمر في جلب الماء بشكل مفرط، حتى بدأت في إغراق المنزل، ليدرك التلميذ حينها أنه لا يعرف التعويذة المناسبة لإيقاف المكنسة. وتساهم السينما بدورها في تعميق هذه المخاوف. ولا نعدم مجموعة من الأفلام مثل أوديسة الفضاء سنة 1968، وماتريكس سنة 1999، وعين النسر سنة 2008، وهير سنة 2013 وإيكس ماشينا سنة 2015.

من أعمال الرسام البولندي بول كيشينسك